الفصل الثاني

الثقافة والحضارة

«إننا لا نستطيع أن نرفض الحضارة حتى لو رغبنا في ذلك. ولكن الشيء الوحيد الضروري والممكن هو أن نحطّم الأسطورة التي تحيط بها».

الأداة والعبادة

هناك حقيقتان متعارضتان ارتبطا بظهور الإنسان: الأداة الأولى والعبادة الأولى. ولعل أول أداة كانت عبارة عن قطعة من الخشب أو من الحجر مشكّلة بطريقة غير مصقولة، أو شظية من شظايا الطبيعة. لقد كانت صناعة الأدوات واستخدامها تُمثل استمراريةً للتطور البيولوجي، وهو تطوّر خارجي وكمّي، يمكن تتبُّعه من الأشكال البدائية للحياة حتى ظهور الحيوان الكامل. فالوقفةُ المنتصبة، واكتمال اليد،.واللغة والذكاء، كلها حالات ولحظات من التطور تبقى بطبيعتها في إطارها الحيواني. إن الإنسان عندما استخدم لأول مرة حجراً لكسْر ثمرةٍ جافة أو لضرب حيوان فقد فعل شيئاً هاماً جداً، ولكنه ليس جديداً كل الجدّة، لأن آباءه الأوائل من فصيلته الحيوانية قد حاولوا فِعْل الشيء نفسه. لكنه عندما وضع الحجر أمام عينيه ونظر إليه باعتباره رمزاً لروح، فإنه بذلك قد قام بعمل أصبح السّمة العامة التي لازمت الإنسان في العالم كله. وهو أمر جديد تماماً في مجرى تطوره. وكذلك عندما قام الإنسان لأول مرة برسم خط حول ظلّه على الرمال، فإنه بهذا العمل قد رسم أول صورة[1]، ومن ثمَّ بدأ نشاطاً متفرّداً اختُصّ به دون سائر الكائنات. فمن البديهي، أن أيَّ حيوانٍ غيرُ قادر على فعل هذا، بصرف النظر عن درجته في سلم التطور، حاضراً أو مستقبلاً.

إن الجوانب البيولوجية لظهور الإنسان يمكن تفسيرها بالتاريخ السابق. أما الجوانب الروحية، فلا يمكن استنتاجها أو تفسيرها بأي شيء وُجد قبله. فالإنسان قد هبط من عالم آخر مختلف، هبط من السماء طبقاً للتصور الديني.

إن العبادة والأداة يمثلان طبيعتين وتاريخين للإنسان: تاريخ هو دراما إنسانية، تبدأ من «المرحلة التمهيدية لوجود الإنسان بالجنة» ثم تتطور خلال انتصار فكرة الحرية، وتنتهي بيوم الحساب في الآخرة، وهي الوازع الأخلاقي للتاريخ. أما الثاني، فهو تاريخ الأدوات أو تاريخ الأشياء الذي ينتهي بالدخول في المجتمع

---

(١) ليوناردو دافنشي Leonardo da Vinci: The Notebooks of Leonardo da Vinci, ed Jean Paul Richter (New York: Dover Publication, 1970).

الطبقي، وقصور الطاقة، شأنه في ذلك، شأن بقية العالم المادي[٢]. هذان التاريخان لهما العلاقة نفسها التي بين العبادة والأداة، وهي العلاقة نفسها التي بين الثقافة والحضارة[٣].

انعكاس ازدواجية الحياة

هناك خلط غريب بين فكرة الثقافة وفكرة الحضارة.

الثقافة تبدأ «بالتمهيد السماوي» بما اشتمل عليه من دين وفن وأخلاق وفلسفة، وستظل الثقافة تُعنى بعلاقة الإنسان بتلك السماء التي هبط منها، فكل شيء في إطار الثقافة إما تأكيد أو رفض أو شك أو تأمل في ذكريات ذلك الأصل السماوي للإنسان. تتميز الثقافة بهذا اللغز، وتستمر هكذا خلال الزمن في نضال مستمر لحل هذا اللغز.

أما الحضارة، فهي استمرار للحياة الحيوانية ذات البعد الواحد، التبادل المادي بين الإنسان والطبيعة. هذا الجانب من الحياة يختلف عن الحيوان فقط في الدرجة والمستوى والتنظيم. هنا لا نرى إنساناً مرتبكاً في مشاكله الدينية، أو مشكلة «هاملت» أو مشكلة «الإخوة كرامازوف»، إنما هو عضو المجتمع الغُفل، وظيفته أن يتعامل مع سلع الطبيعة ويغيّر العالم بعمله وِفْقاً لاحتياجاته.

الثقافة هي تأثير الدين على الإنسان أو تأثير الإنسان على نفسه، بينما الحضارة هي تأثير الذكاء على الطبيعة أو العالم الخارجي. الثقافة معناها «الفن

(٢) قارن كلام «هيجل» في كتابه فلسفة التاريخ، حيث يقول: «التغيّرات في الجنس البشري تتبع التغيّرات في الآلة». وكلام «بيير لاكومب»: «إن التاريخ كله يتدفق نحو المسيح وينبثق منه»، أنظر:
George Hegel: Philosophy of History.

Pierre Lacomb: History Considered as Knowledge.

(٣) تتصل كلمة ثقافة «Culture» من ناحية الأصل اللغوي بكلمة «Cult» عبادة وهي باللاتينية Cultus، وهما ذوا أصل مشترك في الكلمة الهندوأوروبية Kwel. أما كلمة حضارة Civilization فمتصلة بكلمة وطن Civis، أو مواطن.

الذي يكون به الإنسان إنساناً»، أما الحضارة فتعني «فن العمل والسيطرة وصناعة الأشياء صناعةً دقيقة»، الثقافة هي «الخلق المستمر للذات». أما الحضارة، فهي «التغيير المستمر للعالم». وهذا هو تضاد: الإنسان والشيء، الإنسانية والشيئية(٤).

الدين والعقائد والدراما والشعر والألعاب والفنون الشعبية والقصص الشعبية والأساطير والأخلاق والجمال، وعناصر الحياة السياسية والقانونية التي تؤكد على قيم الشخصية والحرية والتسامح، والفلسفة والمسرح والمعارض والمتاحف والمكتبات - يمثل هذا كله الخط المتصل للثقافة الإنسانية، الذي بدأ مشهده الأول في السماء بين الله والإنسان. إنه «صعود الجبل المقدس، الذي تظل قمته بعيدة المنال، سيراً في الظلام بواسطة شمعة مضيئة يحملها الإنسان»(٥).

الحضارة هي استمرار للتقدم التقني لا الروحي، والتطور «الدارونيّ» استمرارٌ للتقدم البيولوجي لا للتقدم الإنساني. تمثل الحضارة تطور القوى الكامنة التي وُجدت في آبائنا الأوائل الذين كانوا أقل درجة في مراحل التطور. إنها استمرار للعناصر الآلية - أي العناصر غير الواعية التي لا معنى لها في وجودنا .. ولذا، فإن الحضارة ليست في ذاتها خيراً ولا شرّاً. وعلى الإنسان أن يبني الحضارة تماماً كما أن عليه أن يتنفس ويأكل. إنها تعبير عن الضرورة وعن النقص في حريتنا. أما الثقافة، فعلى العكس من ذلك: هي الشعور الأبدي بالاختيار والتعبير عن حرية الإنسان.

يزداد اعتماد الإنسان على المادة في الحياة الحضارية بصفة مستمرة، وقد وجد أحدهم أن كل أمريكي - رجلاً كان أو امرأة أو طفلاً - يستهلك في المتوسط ١٨ طناً من المواد المختلفة في السنة.

---

(٤) «Chosism» الشيئية مشتقة من الكلمة الفرنسية Chose بمعنى شيء، وقد استخدم المصطلح الأول لأول مرة عالم الاجتماع الفرنسي «دوركايم» ويعني به بحث الظاهرة بحثاً موضوعياً، أي من الخارج باعتبارها شيئاً فحسب.

(٥) «اندريه مالرو» André Malraux: Antimemoirs, Serbocroation trans (Zegreb: Naprijed, 1969) p. 276.

والحضارة في خلْقها الدائم لضرورات جديدة وقدرتها على فرض الحاجة على من لا حاجة له، تعزّز التبادل المادي بين الإنسان وبين الطبيعة وتُغري الإنسان بالحياة البرّانية على حساب حياته الجُوّانية(*). «إنتج لتربح، واربح لتبدّد» هذه سمة في جبلَّة الحضارة. أما الثقافة (وفقاً لطبيعتها الدينية)، فتميل إلى التقليل من احتياجات الإنسان أو الحد من درجة إشباعها، وبهذه الطريقة توسّع في آفاق الحرية الجوّانية للإنسان. وهذا هو المعنى الحقيقي لأنواع كثيرة من التنسّك وإنكار الذات عُرفت في جميع الثقافات. منها ما يفترض شكلاً غامضاً من أشكال «تكريس قلّة النظافة» كالتي نراها عند الرهبان وعند «الهِبيزْ» على حد سواء.

فعلى عكس حكمة الإسلام في «كبح الرغبات»، فإن الحضارة وهي ـ محكومة بمنطق مُضاد ـ عليها أن ترفع شعاراً مُضاداً: «أطلق رغبات جديدة دائماً وأبداً»(٦). والمعنى الصحيح وراء هذه التوجُّهات المتضاربة لا يدركه إلا شخص يعلم أنها لم تأت بالصدفة في أي من المثلين السابقين. إنها تُرينا أن الإنسان كائن متناقض، فهو يعكس غموض الطبيعة الإنسانية، كما يعكس هذا التضارب بين الثقافة والحضارة.

حامل الثقافة هو الإنسان، وحامل الحضارة هو المجتمع، ومعنى الثقافة القوة الذاتية التي تُكتسب بالتنشئة، أما الحضارة فهي قوة على الطبيعة عن طريق العلم. فالعلم والتكنولوجيا والمدن والدول كلها تنتمي إلى الحضارة. وسائل الحضارة هي الفكر واللغة والكتابة(٧). وكلٌّ من الثقافة والحضارة ينتمي أحدهما

(*) مصطلح «الجُوانية» ظهر في محاضرات الدكتور عثمان أمين في خمسينات هذا القرن بجامعة القاهرة ثم صاغه في كتاب سمّاه «الفلسفة الجُوّانية»، ونرى أن المعنى الذي يقصده المؤلف يتطابق مع هذا المصطلح. (المترجم).

(٦) في صحيفة «نيويورك تيمز» ظهرت (حديثاً) مقالة تصف هذا الشعار بأنه «الوصية الأولى للعصر الحديث».

(٧) أثبت «مارشال ماكلوهان» أن الكتابة تحدث تغييرات في طرائق التفكير وأن «استعمال نوع من الألفبائية ينتج ويدعم عادة التعبير في لغة مرئية ومكانية، خصوصاً في ظروف مكان مطّرد وزمان مطرد باستمرار ودوام». =

للآخر كما ينتمي عالم السماء إلى هذا العالم الدنيوي، أحدهما «دراما» والآخر «طوبيا».

يقول «تاسيروس» إن البرابرة كانوا يعاملون عبيدهم أفضل بكثير من معاملة الرومان لعبيدهم(٨). وعموماً، تُعتبر الدولة الرومانية القديمة نموذجاً مناسباً لرسم خط فارق بين الثقافة والحضارة.

فلا يُثير عجبنا في الحضارة الرومانية: الحروب والسطو، وقسوة الطبقات الحاكمة، والجماهير الممسوخة، والمكائد السياسية، واضطهاد المسيحيين، وألعاب المصارعة حتى الموت، و«نيرون» و«كاليجولا»، كل هذه الفظائع لا تثير عجبنا، ولكننا نعجب كم بقي بعد هذا من ثقافة في هذه الحضارة!. إنه «الروح الهلّينية والذكاء الروماني» هو الفارق بين الثقافة والحضارة(٩). يعطي الرومان ذلك الانطباع بأنهم برابرة متحضّرون، فروما هي النموذج لحضارة قوية محرومة من الثقافة. أما الثقافة «المایاوية» فقد تكون هي النموذج المُضاد. طبقاً لما عَرَفْنَاهُ عن الحياة عند الجرمانيين والسلافيين القدامى يبدو أنهم كانوا على مستوى أرفع في الثقافة من الرومان. كذلك كان الهنود الحمر أكثر ثقافة من المستعمرين البيض.

ويمثل عصر النهضة الأوروبية نموذجاً مُعبِّراً لهذه الظاهرة. فتلك الفترة الثقافية كانت من أكثر الفترات إثارة في التاريخ الإنساني. ومع ذلك تُعتبر تدهوراً من وجهة نظر الحضارة. فقد حدثت ثورة اقتصادية حقيقية في أوروبا إبّان القرن الذي سبق عصر النهضة، نتج عنها زيادة في الإنتاج والاستهلاك، كما تحققت زيادة سكانية ملحوظة. ولكن خلال القرنين التاليين (١٣٥٠ - ١٥٥٠) اللذين

McLahan: The Gatenberg Galaxy, Serbocroation trans. (Beograd. Nolit, 1913) p. 32.

(٨) «تاسيروس» Tacırus: Agrıcola and Germania, Trans. Maurice Hutten (Cambridge, MA: Harvard University Press, n.d.).

(٩) «أزوالد شبنجلر» Oswald Spengler. The Declıne of the West (London: George Allen and Unwin, 1971) p. 32.

عُرفا بعصر النهضة، تلاشت مكتسبات هذه الثورة تقريباً. كان التركيز في هذا العصر على الإنسان بدلاً من العالم، وكان العصر مأخوذاً بهاجس الوجه الإنساني، حيث يبدو عصر النهضة غير مُبالٍ بما يجري في عالم الواقع. فبينما كانت أعظم الأعمال الفنية في الثقافة الغربية يتم إبداعها، شهد العصر رُكوداً عاماً وتدهوراً ملحوظاً تبعه انخفاض في عدد سكان معظم الدول الأوروبية. ففي حوالى منتصف القرن الرابع عشر كان تعداد سكان إنكلترا يبلغ أربعة ملايين نسمة، وبعد مائة عام انخفض عدد السكان فيها إلى ٢,١ مليون فقط، وانخفض تعداد «فلورنسا» خلال القرن الرابع عشر من مائة ألف إلى سبعين ألف نسمة.

ويتضح لنا من هذا أنه يوجد «تقدمان» لا يرتبط أحدهما بالآخر بأي رباط جوهري.

التعليم والتأمّل

الحضارة تُعلِّم أما الثقافة فتُنوّر، تحتاج الأولى إلى تعلُّم، أما الثانية فتحتاج إلى تأمّل.

التأمل جهد جُوّاني للتعرف على الذات وعلى مكان الإنسان في العالم، هو نشاط جدّ مختلف عن التعلّم وعن التعليم وجمع المعلومات عن الحقائق وعلاقاتها بعضها ببعض. يؤدي التأمل إلى الحكمة والكياسة والطمأنينة، إلى نوع من التطهير الجُوّانيّ الذي سماه الإغريق «Catharsis». إنه تكريس النفس للأسرار والاستغراق في الذات للوصول إلى بعض الحقائق الدينية والأخلاقية والفنية(١٠).

(١٠) هذه الحالة «اللاعلمية» للعقل أثناء عصر النهضة يمكن التماسها في انتشار الخرافات ـ ليس فقط بين عامة الناس ـ ولكن بين الخاصة من الفنانين ورجال الأدب... «علم التنجيم مثلاً، كان يقدّره بصفة خاصة المفكرون الأحرار، لقد اكتسب التنجيم رواجاً لم يحظ به في العصور القديمة».
أنظر:
Bertrand Russell: History of Western Philosophy (London: n.p., 1948). p. 523.

أما التعلّم، فيواجه الطبيعة لمعرفتها ولتغيير ظروف الوجود. يطبق العلم الملاحظة والتحليل والتقسيم والتجريب والاختبار. بينما يُعنى التأمل بالفهم الخالص، بل إن الأفلاطونية الجديدة تزعم أنها طريقة للفهم فوق عقلانية. الملاحظة التأملية «متحررة من الإرادة ومن الرغبة»(١١). إنها ملاحظة لا تتصل بوظيفة أو مصلحة. فالتأمل ليس موقف عالِم، بل موقف مفكّر شاعر أو فنّان أو ناسك. وقد تَعْرِضُ للعالِم بعض لحظات من التأمل لكنه يفعل هذا، لا بصفته عالِماً، ولكن باعتباره إنساناً أو فنّاناً (فجميع الناس هم فنّانون بشكل أو بآخر). يمنح التأمل قوة على النفس، أما العلم، فإنه يعطي قوة على الطبيعة. وتعليمنا في المدارس يُزكّي فينا الحضارة فقط ولا يساهم بشيء في ثقافتنا.

في عصرنا هذا يتعلم الناس، لكنهم كانوا في الماضي معتادين على التأمل. لقد كان حكماء «لابوتا» Laputa يستغرقون في تأملاتهم حتى أنهم لم يكونوا يلتفتون أو يُنصتون إلى أولئك الذين كانوا يزعجونهم بكثرة الأسئلة(١٢). تذكر لنا الأسطورة أن «بوذا» قبل أن يتلقى الإلهام كان يقف على ضفة النهر طوال ثلاثة أيام نهاراً وليلاً مستغرقاً في التفكير غير شاعر بمرور الوقت. وترك لنا «زينوفون» قصة مماثلة عن الفيلسوف «سُقراط» قال: في صباح أحد الأيام كان «سقراط» يفكر في أمر لم يجد له حلاًّ، فلم يستسلم بل استمر في التفكير من الفجر الباكر حتى وقت الظهيرة، ظل واقفاً لم يبرح مكانه مستغرقاً في تفكيره. وعند الظهيرة جذب وضْعُه اهتمام الناس، وسَرَتْ شائعة بين الجمهور المحب للاستطلاع أن سقراط لا يزال واقفاً منذ طلوع الفجر يفكر في شيء. وفي المساء، جاء بعد العشاء رهط من «الأيونيّين» بدافع حبّ الاستطلاع، وقد أحضروا معهم الحصير فاضطجعوا عليه في العراء ليشاهدوا سقراط، وليروا ما إذا كان سيظل واقفاً طوال الليل. وظل سقراط بالفعل واقفاً حتى الصباح التالي. وما أن ظهر ضوء النهار

---

(١١) «آرثر شوبنهور» Arthur Schopenhauer: The Works of Schopenhauer, ed. Will Durant (Garden City, N.Y., Garden City Publishing Company, 1928).

(١٢) «بايوت» Payot: The art of being man, Serbocroation trans. (Beograd: Rad, 1960) p. 21.

حتى استقبل الشمس بالصلاة ثم انصرف لحال سبيله(١٣).

لقد أَمْضَى «تولستوي» حياته يفكر في الإنسان ومصيره، بينما كان «جاليليو» ـ نبيّ الحضارة الغربية ـ قد استولت عليه طوال حياته مشكلة «الجسم الساقط». أن تتأمل، وأن تتعلم (أو تدرس) نشاطين مختلفين، أو نوعين من الطاقة يستهدفان اتجاهين متعارضين، أدّى الأول «بيتهوفن» إلى إبداع السمفونية التاسعة، وأدى الثاني «بنيوتن» إلى اكتشاف قوانين الجاذبية والحركة. إن التعارض بين التأمّل والتعلّم يكرر نفسه في التعارض بين الإنسان والعالم، بين الروح والذكاء، بين الحضارة والثقافة.

فما هو موضوع التأمل؟

في الطبيعة نستطيع أن نكتشف العالم والإنسان، في حقيقة الأمر كل شيء يمكن اكتشافه فيما عدا الذات الإنسانية أو الشخصية، إنه فقط من خلال هذه الذات نتصل باللانهائي، خلال الذات ـ ومن خلالها فحسب ـ نشعر بالحرية وندرك العالم الآخر الذي نشترك معه في ميراث واحد. الإنسان وحده فقط، يستطيع أن يشهد بوجود عالم الأرواح والحرية. وبدون الذات يستحيل أن نشهد عالماً وراء عالم الطبيعة. لأن كل شيء آخر بجانب ذات الإنسان هو وجود برّانيّ ظاهري. التأمل استغراق فى الذات، محاولة للوصول واكتشاف هويّتنا وحقيقة حياتنا ووجودنا . فالتأمل لهذا السبب لا يحاول الإجابة على أسئلة عن المجتمع أو البشر. إنه مَعنيٌّ فقط بالتساؤلات التي يضعها الإنسان أمام ذاته. وإذا دققنا النظر في «التأمل» نجد أنه ليس وظيفة من وظائف الذكاء. فالعالِمْ وهو يُصمّم نوعاً جديداً من الطائرات لا يتأمل، إنما يفكر أو يدرس ويبحث ويختبر ويقارن، وكل هذه الأنشطة في مجموعها أو منفردةً ليست تأملاً. أما الراهب والشاعر والمفكر والفنان، فإنهم يتأملون، إنهم يحاولون الوصول إلى الحقيقة الكبرى، السر الوحيد الأكبر. هذه الحقيقة تعني كل شيء ولا شيء: كل شيء بالنسبة للروح، ولا شيء بالنسبة لبقية العالم.

---

(١٣) أنظر: «زينوفون» Xenophone: Hellenica, Anabasis, Apology, and Sympocium, ed. C.L. Brownson and O.J. Todd. (Cambridge, MA: Harvard University Press, n.d.)

من أجل ذلك، كان التأمل نشاطا دينيا. الفرق بين العقل والتأمل عند أرسطو هو الفرق بين الإنساني والإلهي.

والصلاة فى «البوذية» مجرد تأمل . وفى المسيحية نجد أن طقوس الرهبانية التأملية ظاهرة جدّ منطقية. ويذهب الفيلسوف «إسبينوزا» إلى أن التأمل أرقى شكل وهدف للأخلاق.

التعليم وحده لا يَرْقَى بالناس ولا يجعلهم أفضل مما هم عليه أو أكثر حرية، أو أكثر إنسانية. إن العلم يجعل الناس أكثر قدرة، أكثر كفاءةً، أكثر نفعاً للمجتمع. لقد برهن التاريخ على أن الرجال المتعلمين والشعوب المتعلمة يمكن التلاعب بهم بل يمكن أن يكونوا أيضاً خُدّاماً للشر، ربما أكثر كفاءة من الشعوب المتخلفة.

إن تاريخ الإمبريالية سلسلة من القصص الحقيقية لشعوب متحضرة شنّت حروباً ظالمة استئصالية استعبادية ضد شعوب متخلفة أقل تعليماً، كان أكبر ذنبهم أنهم يدافعون عن أنفسهم وحرياتهم. إن المستوى التعليمي الراقي للغزاة لم يؤثر على الأهداف أو الأساليب، لقد ساعد فقط على كفاءة الغزاة وفرض الهزيمة على ضحاياهم.

التعليم التقنيّ والتعليم الكلاسيكي

ليس التعليم، على أي حال، ظاهرة أحادية الجانب، فإننا إذا نظرنا إليه عن قرب، فسوف نلاحظ اتجاهين مختلفين، متساويين ولكنهما مستقلان.

فالتعليم المدرسي في العالم المتحضر يعتمد على الفكر أكثر مما ينبغي، والجانب الإنساني فيه أضأل مما ينبغي. وباستخدام المصطلحات المعتادة نقول إنه تعليم تقنيّ أكثر مما يجب ويكاد يكون مُضمحلًّا في جانبه الكلاسيكي (التقليدي)[١٤].

(١٤) في بعض البلاد يستخدم بدلاً من ذلك: «Grammer» ولعلهم يقصدون به التعليم القاعدي أو الأساسي، أو «...Exact» ولعلهم يقصدون به التعليم الصحيح أو الدقيق.

في هذه الأيام، من الممكن جداً أن نتخيل شاباً قد مر بجميع مراحل التعليم من المدرسة الابتدائية حتى الكلية دون أن يكون قد ذُكر له ضرورة أن يكون إنساناً خيّراً وأميناً. فهو يتعلم أولاً أن يكتب ويحسب، ثم يدرس الطبيعة والكيمياء، وعلم الأعراق البشرية، والجغرافيا، والنظريات السياسية، وعلم الاجتماع، وعلوماً أخرى كثيرة. إنه يجمع عدداً هائلاً من الحقائق، وعلى أحسن الفروض يتعلم كيف يفكر، ولكنه لم يشتنر (ثقافياً أو روحياً). إننا لم نعد نسمع إلا قليلاً عن برامج التاريخ والفنون والآداب والأخلاق والقانون.

التعليم التقنيّ سبب للحضارة ونتيجة لها، فهذا النوع من التعليم يُهيّىء العضو للدخول في المجتمع، وهو تعليم مصمّم لتحقيق هذا الغرض. فهو مُوجّهٌ لغاية محدّدة بإحكام، واهتمامه مُنصَبٌّ على السيطرة على الطبيعة أو العالم الخارجي. أما التعليم الكلاسيكي، فعلى العكس من ذلك، يبدأ وينتهي عند الإنسان، أي أن «اللاهدف هو غايته».

ومعضلة التعليم التقنيّ في مقابل التعليم الكلاسيكي ليست معضلة فنية، وإنما هي مسألة أيديولوجية تكمن وراءها فلسفة معينة. ففي هذين النوعين من التعليم ينعكس التضاد بين الثقافة والحضارة بكل ما يترتب عليه من نتائج. سنجد أن المجتمع غير الصناعي يغلب عليه الاتجاه نحو التعليم الكلاسيكي، بينما المجتمع الصناعي، وبخاصة المجتمع الاشتراكي، ينحو تجاه التعليم التقنيّ. بطبيعة الحال، هذا مجرد مبدأ عام قد يعاني من الانحراف في الممارسة هنا أو هناك، ولكن يظل التوجُّه العام قائماً متحقّقاً من خلال التصحيحات التي لا مَفرّ منها. إن المقارنة بين البرامج الدراسية في الاتحاد السوفياتي (سابقاً)، وفرنسا والصين، أو اليابان على الأخص، في مواد التاريخ والقانون والأخلاق والآداب، واللغة اللاتينية والإغريقية، قد تكشف عن فروق ذات أهمية.

إن السياق المنطقي للتعليم التقنيّ هو التخصص. فقبل كل شيء نستطيع أن نرى الذكاء والعلم والصناعة تشكل خطّاً واحداً، وأنها مرتبطة بعضها ببعض كسبب ونتيجة. فالعلم نتيجة الذكاء، والصناعة هي مجرد تطبيق العلم. وهي جميعاً شروط وأشكال لتأثير الإنسان على الطبيعة، على العالم الخارجي. يوفّر

التخصص للفرد وضعاً أفضل وأقوى في النظام الاجتماعي، أي في الآلة الاجتماعية. ولكن التخصص يقلّص الشخصية الفردية ويعلي من شأن المجتمع ويجعله أكثر كفاءة، فالمجتمع يأخذ قدرات الكل، بينما الإنسان ـ كجزء من الآلة الاجتماعية ـ آخذٌ في التناقص. إن تفتيت العمل وتجريد الإنسان من شخصيته ـ باعتباره أحد الرعايا العاملين ـ يميلان في زحفهما إلى الأمام، إلى الحالة المُثلى للطوبيا.

إن التأمل في التوسع الذي طرأ على التعليم يسبب الدوار. ففي سنة ١٩٠٠، كان في جميع الكليات والجامعات في الولايات المتحدة أربعة وعشرون ألف أستاذ، وفي سنة ١٩٢٠ ارتفع الرقم إلى تسعة وأربعين ألفاً، ويُتوقع أن يرتفع الرقم في نهاية القرن إلى ٤٨٠ ألف أستاذ. وكان مجموع الطلاب سنة ١٩٠٠ في جميع الكليات والجامعات ٢٣٨ ألف طالب، وفي سنة ١٩٥٩ بلغ عدد الطلاب ٣,٧٧٧,٠٠٠. وبعد ذلك بعشر سنوات ارتفع العدد إلى ١٤,٦٠٠,٠٠٠. أما القيمة الكليّة للإنفاق على التعليم، فقد ارتفعت من رقم رمزي (٢٧٠) مليون دولار في سنة ١٩٢٠ إلى مبلغ ٤٢,٥ بليون دولار سنة ١٩٧٠[١٥]. مثل هذه الزيادات حدثت في الدول الشيوعية ـ ولكن بطبيعة الحال ـ بدأت ميزانيات التعليم من نقط أقل.

إن القوتين العالميتين العُظْميين في العالم، أعني الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي (سابقاً) هما القوتان العسكريتان العُظْميان. ولكنهما ليستا أعظم دول العالم ثقافةً. هاتان الدولتان تخصّصان أكبر الاعتمادات للبحث العلمي وللتعليم (الاتحاد السوفياتي ٤,٢٪ والولايات المتحدة ٢,٨٪ من الدخل القومي). ويحصل الأمريكي فوق ٢٥ سنة من العمر على ١٠,٥ سنة من التعليم في المتوسط، ويلي ذلك البريطاني ٩,٥ سنة ثم الروسي ٥ سنوات دراسية[١٦].

---

(١٥) أنظر نشرة: Education Office of the US Department of Health, Education and Welfare.

(١٦) معلومات تنتمي إلى سنة ١٩٦٠.

فأي نوع من التعليم هذا؟ كقاعدة، هو تعليم مُجهز وفق وصْفةِ الحضارة.

في الدول الشيوعية ينطوي التعليم على أن يتشرّب الأفراد نظام الدولة الأيديولوجي والسياسي، ويخضع لمصالحها. وفي الدول الرأسمالية يتلاءم التعليم عموماً مع المتطلبات الاقتصادية ويخدم النظام الصناعي. وفي كلتا الحالتين، فالتعليم هو تعليم وظيفي وفي خدمة النظام. هذا الاتجاه سائد على الرغم من التصريحات الوردية عن التحسينات التي تحققت في جوانب متعددة للشخصية الإنسانية، وعن الخصائص الإنسانية للتعليم... إلخ. وسوف ندعم هذا التأكيد من خلال مَصْدَريْ ثقة.

لقد أكّد لينين مراراً، أن التعليم لا يجب أن يكون «مُحايداً» موضوعياً لاسياسياً. ففي المؤتمر الأول للتعليم السوفييتي الذي انعقد في سنة ١٩١٨، وضع لينين المبدأ الأول للتعليم على هذا النحو: «إن عملنا في التعليم يستهدف تحطيم الطبقة البرجوازية، ونحن نعلن أنه ليس هناك مدرسة خارج السياسة فهذا كذب ونفاق»(١٧). إن صياغة التعليم في قالب أيديولوجي ظل هو المبدأ في النظام التعليمي للاتحاد السوفيتي حتى اليوم.

أما «جون ك. جالبريث» ـ وهو منظِّر اقتصادي شهير وأحد أفضل الخبراء في النظام الصناعي في عالم اليوم، يقول: «... لا شك أن المدرسة الثانوية الحديثة قد تكيّفت تماماً لتتلاءم مع احتياجات النظام الصناعي... فما يتمتع بالقدر الأكبر من الاعتبار هو العلوم البحتة والتطبيقية والرياضيات، وليس هذا إلا انعكاساً لمتطلبات البنية التقنيّة... بينما الاعتبار الأقل والتدعيم الأقل يختص بالفنون والعلوم الإنسانية انعكاساً لقلة أهميتها... إن المدارس التقنيّة والتجارية ذات قيمة عالية لما لها من خاصية نفعية... ولقد شجع النظام الصناعي على التوسع الهائل في التعليم، ولا يسعنا إلا الترحيب بهذا. ولكن ما لم نستطع التنبؤ بنزعات هذا النظام بوضوح ومقاومتها بشدة، فإن هذه النزعات ستضع بالتأكيد

---

(١٧) «فلاديمير لينين»: Vladimir I. Lenin: The Lenin Anthology, ed. Robert C. Tucker (New York: Norton, 1975).

عائقاً على التعليم، من شأنه أن يخدم أكثر ما يخدم احتياجات هذا النظام وأهدافه، وأقل ما يفعله هو أن يعرض هذه الأهداف للمناقشة»[١٨].

مهما يكن الأمر، لنحاول أن نتبين السمات المشتركة للنظامين التعليميين السائدين في كل من الجانبين: أول كل شيء هو اختيار بالغ التحديد ينطوي على تنافس مدمر، ويستخدم هذا التعليم لغة تخصصية صناعية في أغلب المواد الدراسية. النظام المعماري السائد في المدارس وظيفي متقشف يتلاءم مع المعايير النفعية والصحية، وذلك لأن المدرسة إما أنها تخدم البيروقراطية الحاكمة، أو تخدم النظام الصناعي وهما يتلاقيان في هدف واحد هو إعداد المتخصصين الذين سيخدمون ويدعّمون هاتين الآليتين. أما الكلام عن مدارس إنسانية هنا أو هناك، فهو مجرد كلام معسول لا أكثر ولا أقل.

فإذا نحن ذهبنا نُقيّم المحتوى الثقافي للتعليم الذي تقدمه هذه المدارس، فنستطيع أن نقول: إن المدرسة مُكوِّن أساسي من مكونات الثقافة، إنها تساهم في الثقافة إلى درجة لا تجعل منها مجرد تدريب على الطاعة والنظام لأنها تنمّي التفكير النقدي، وتسمح للإنسان بالحرية الروحية. أما المدرسة التي تقدم حلولاً أخلاقية وسياسية جاهزة، فإنها تعتبر من وجهة نظر الثقافة مدرسة همجية لأنها لا تخلق أشخاصاً أحراراً بل أتباعاً، إنها قد تدعم الحضارة ولكنها تحط من شأن الثقافة.

الثقافة الجماهيرية

في ضوء الاعتبارات السابقة سيكتشف القارىء بنفسه مكان ما يسمونه «الثقافة الجماهيرية»، هل هي ثقافة حقّاً أم مجرد ملمح من ملامح الحضارة؟

موضوع أي ثقافة هو الإنسان: فرداً أو شخصيةً، أي الفردية المتفرِّدة التي لا تتكرر. أما موضوع الثقافة الجماهيرية وهدفها، فهو الجمهور أو «الإنسان

---

(١٨) «جالبريث» John Galbraith and M.S. Randhawa: The New Industrial State (Boston: Houghton - Mifflin 1967). pp 339-341.

الجمهور» «Man Mass»[19]. يملك الإنسان روحاً، أما الجمهور فلا شيء لديه سوى حاجاته. ومن ثم، فكل ثقافةٍ هي تنمية للإنسان، بينما الثقافة الجماهيرية مجرد إشباع للحاجات.

تنحو الثقافة تجاه الفردية، أما الثقافة الجماهيرية فتصبّ في الاتجاه المعاكس، نحو التماثل (صبّ الأرواح في قوالب متماثلة). عند هذه النقطة تنحرف الثقافة الجماهيرية عن الأخلاق وعن الثقافة. فالإنتاج بالجملة «للسلع الروحية»، والنسخ المكررة للأدب المزخرف الرخيص يؤديان إلى سلب الشخصية. إن الثقافة الجماهيرية تختلف عن الثقافة الأصيلة في أنها تحدُّ من الحرية الإنسانية من خلال هذا الاتجاه نحو التماثل، ذلك لأن الحرية هي مقاومة التماثل[20].

وهناك خطأ شائع يخلط بين الثقافة الجماهيرية و«الثقافة الشعبية»، وهذا الخلط يسيء إلى الأخيرة. حيث تختلف الثقافة الشعبية عن الثقافة الجماهيرية في أنها ثقافة أصيلة حية ومباشرة. وهي بريئة من البهرجة ومن الأعمال الأدبية والفنية الهابطة (Kitsch)[21]، والتي هي نتاج المدن الكبرى.

الثقافة الشعبية قائمة على الإجماع والمشاركة، بينما المبدأ السائد في الثقافة الجماهيرية هو التلاعب. في إطار الثقافة الشعبية نجد أن الطقوس والرقصات والأغاني هي ممتلكات مشتركة في القرية أو القبيلة. فالذين يؤدّونها هم في الوقت نفسه جمهور المشاهدين، والعكس صحيح. فإذا بدأ الاحتفال، يأخذ كل

---

(١٩) «Man Mass» أو الإنسان الجمهور، أنشأ هذا المصطلح في الأدب «جوزي أورتيجا» ويعني به أن الجمهور يتحول إلى وحدات مجهولة الهويّة، لا وجه لها، أو إلى مجموعة من الناس فقدوا شخصياتهم وتقلصوا إلى مجرد كتلة غير متميزة المعالم. و«الإنسان الجمهور» هو النتاج النهائي لحضارة بدون ثقافة، متحرر من الشك والتفصيلات الثقافية. أنظر:
José Ortiga Y. Gasset. The Result of the Masses (N.Y. Norton).

(٢٠) أنظر «ماكس هوركيمر» Max Horkheimer: Dialectic of Enlightenment. trans. John Cumming (New York: Herder and Herder, 1972).

(٢١) مصطلح Kitsch يعني الأعمال الفنية أو الأدبية ذات المستوى الهابط، وهي أعمال صيغت لاجتذاب الذوق الشعبي السائر.

واحد دوره فيه، كل شخص يتحول إلى مؤدٍّ. أما الثقافة الجماهيرية، فإنها تقدم نموذجاً آخر مختلفاً. فالناس هنا منفصلون انفصالاً تاماً إلى: «مُنتجين» و«مستهلكين» للسلع الثقافية، فهل هناك من يعتقد حقاً أنه يستطيع التأثير في برنامج تليفزيوني إلا إذا كان - طبعاً - ينتمي إلى الفئة القليلة التي تصنع هذه البرامج؟ إن ما يُسمى بوسائل الإعلام الجماهيرية (كالصحافة والراديو والتليفزيون) هي في الحقيقة وسائل للتلاعب بالجماهير. فمن ناحية، يوجد مكتب المحررين وهو مكون من عدد من الناس عملهم هو إنتاج البرامج. وعلى الناحية الأخرى ملايين المشاهدين السلبيين.

لقد أُجريت دراسة في سنة ١٩٧١، كشفت عن أن الإنكليزي العادي يقضي من ١٦ - ١٨ ساعة في الأسبوع يشاهد التليفزيون(٢٢). فقد أصبح التليفزيون يحتل مكان الأدب بشكل مطرد، فهو قرينُه في الحقل الثقافي. ووُجد أن واحداً من كل ثلاثة أشخاص من الفرنسيين لم يقرأ في حياته كتاباً، وأن الأمة الفرنسية تقضي وقت فراغها أمام التليفزيون(٢٣). وقد أشارت الدراسة أيضاً إلى أنه بالنسبة لثمانية وسبعين في المائة من السكان، وُجد أن الوسيلة الثقافية الأساسية لتمضية الوقت هي التليفزيون. وفي دراسة أجريت بمناسبة «أسبوع الكتاب» سنة ١٩٧٦، أظهرت أن الموقف في اليابان لا يختلف عنه في الدول الأخرى. فحوالى ٣٠٪ من اليابانيين لا يقرأون الكتب، بينما كل واحد منهم يمضي ساعتين ونصف الساعة يومياً يشاهد التليفزيون. ويذهب البروفسور «هوريكاوا» بجامعة «سان فرنسيسكو» إلى أن استعداد الجيل الجديد أقل من المستوى المعياري للجامعة. ويفسر «هوريكاوا» ذلك بطريقة مبسّطة، حيث يقول: إن التليفزيون قد حلّ محل الأدب والتفكير، وبالتالي استطاع أن يقلّص النشاط الفكري. إنه يقدّم حلولاً جاهزة لجميع مشكلات الحياة(٢٤).

(٢٢) هذه البيانات مستقاة من المطبوع الحكومي المنشور تحت عنوان:
Society Trends: a statistical annual of the British Government.

(٢٣) ملخص من دراسة قامت بها مجلة: Le Point, 1975.

(٢٤) «هوريكاوا» Naoyoshi Horikawa: Gendai Masukomyunikeshon ron (n.p. 1974).

ويمدنا هذا العصر بأمثلة تدلنا على أن وسائل الإعلام الجماهيرية للثقافة - عندما تحتكرها الحكومة - تستخدمها وسائل لتضليل الجماهير كأسوأ ما يكون التضليل. فلم يعد هناك حاجة للقوة الغاشمة لحمل الشعب على عمل شيء ضد إرادته. حيث يمكن الوصول إلى ذلك اليوم بطريقة مشروعة، وذلك بشلّ إرادة الشعب عن طريق تغذيته بحقائق مغلوطة جاهزة ومكررة، ومنع الناس من التفكير أو الوصول بأنفسهم إلى أحكامهم الخاصة عن الناس أو الأحداث.

لقد أثبت علم نفس الجماهير، كما أكّدت الخبرة، أنه من الممكن التأثير على الناس من خلال التكرار المُلِحّ لإقناعهم بخرافات لا علاقة لها بالواقع(٢٥). وتنظر سيكلوجية وسائل الإعلام الجماهيرية إلى التليفزيون على الأخص باعتباره وسيلة - ليس لإخضاع الجانب الواعي في الإنسان فحسب - بل الجوانب الغريزية والعاطفية، بحيث تخلق فيه الشعور بأن الآراء المفروضة عليه هي آراؤه الخاصة(٢٦).

وترى جميع المجتمعات الشمولية فُرصتها في التليفزيون وتندفع لاستخدامه، وهكذا أصبح التليفزيون تهديداً للحرية الإنسانية، أكثر خطراً من البوليس والسجون ومعسكرات الاعتقال السياسي. وأعتقد أن الأجيال القادمة - ما لم تكن

(٢٥) حتى سنة ١٩٤٥ كان اليابانيون يتعلمون أن «الميكادو» هو سليل إلهة الشمس، وأن اليابان خلقت قبل بقيّة العالم. وكان الطلاّب يتعلمون هذه الخرافة حتى على يد أساتذة الجامعة. ولكن هذه الحالة أصبحت الآن في ذمة التاريخ. أما اليوم فنصادف خرافات على شكل عبادة القادة في روسيا وفي الصين وكوريا الشمالية (عبادة ستالين، وماوتسي تونج وكيم إلْ سونج). جميع هذه الخرافات على نمط واحد، مثلاً: «كل كلمه للقائد المُبجّل المحبوب الرفيق كيم إلْ سونج قد استقرت في أعماق قلوبنا كما يتخلل الماء الأرض العطشى... إننا سنمضي عاقدين العزم على السير وفق الخطة العظمى للتنمية الاشتراكية التي صاغها قائدنا المبجّل المحبوب الرفيق كيم إلْ سونج» من مقال كتبه كيم جون هُوي. وفي تابوت زجاجي بساحة أحد المصانع بكوريا الشمالية عُرض حجر بداخله ومكتوب عليه هذه العبارة: «الحجر الذي جلس عليه الرفيق الحبيب المُبجّل عندما كان يتحدث».

(٢٦) كتاب جيد في هذا الموضوع: Djura Susinjic: Fishermen For Human Souls (Beograd: Zadruga, 1977).

قدرتها على التفكير قد دُمّرت تماماً ـ سوف تُصدم باستشهاد الجيل الحالي المستهدف بدون عائق لتأثير هذه القوة الضارية التي لا رابط لها. فإذا كانت الدساتير في الماضي توضع للحد من سطوة الحكام، فإن دستوراً جديداً سنحتاج إليه لكبح جماح هذا الخطر الجديد الذي يهدد بإقامة عبودية روحية من أسوأ الأنواع.

تتسم الثقافة الجماهيرية بحالة عقلية أشار إليها «يوهان هُويْزنجا» Johan Huizinga باسم «الصبيانية» Puerility. فقد لاحظ «هويزنجا» أن الإنسان المعاصر يتصرف بطريقة طفولية ـ بالمعنى السلبي للكلمة، أي بطريقة تتفق مع المستوى العقلي للمراهقة: تسليات مبتذلة، غياب روح الفكاهة الأصيلة، الحاجة إلى أحداث مثيرة ومشاعر قوية، الميل إلى الشعارات الرنّانة والاستعراضات الجماهيرية، والتعبير عن الحب والكراهية بأسلوب مُبالغ فيه، اللوم والمدح المُبالغ فيهما، وغير ذلك من العواطف الجماهيرية القاسية.

وفي نهاية المطاف، نواجه موقفين مختلفين تجاه الآلة والتكنولوجيا. فالثقافة لديها «خوف من الآلة»، وكراهية غريزية للتكنولوجيا: «الآلة هي الخطيئة الأولى في الثقافة»[٢٧]. جاء هذا الموقف من الشعور بأن الآلة كانت منذ البداية وسيلة للتلاعب بالأشياء ثم تحولت لتصبح وسيلة للتلاعب بالإنسان. لنتذكر التحذيرات التي عبّر عنها كل من طاغور، وتولستوي، وهيدجر، ونايزفستني Neizvestni، وفوكنر Faulkner، وآخرون.

ومن الناحية الأخرى، نجد الماركسي «هنري ليفيفر» Lefèbvre يتبنى فكرة مختلفة تماماً، فهو يقول: «إن أعلى مستوى للحرية يمكن الوصول إليه فقط في

---

(٢٧) أنظر: «نيقولاي برديائيف» Nikolai Berdyaev: The Modern Crisis of Culture. Serbocroatian trans. (Beograd: Hriscanska... 1932).

وأنظر أيضاً: «كنيث كلارك» في كتابه «الحضارة»، حيث يقول: «إن الذين استطاعوا أن ينفذوا إلى أعماق الصناعة في وقت مبكر كانوا هم الشعراء، فكان بليك Blake يقول أظن أن المصانع من عمل الشيطان... وقد مضى بعد ذلك ما يقرب من عشرين عاماً قبل أن يتنبه الإنسان العادي إلى المسخ الذي خلقته الحضارة. =

مجتمع تطورت فيه التكنولوجيا بكل ما فيها من إمكانات - في مجتمع شيوعي»(٢٨). في مجتمع (طوباوي) يحيا على الطوبيا كمثل أعلى مباشر أو غير مباشر، سنجد الحليف الطبيعي هو الآلات والتكنولوجيا، فالآلات تدعّم ولا تمنع التلاعب بالإنسان والأشياء. إنها تساعد على إيجاد التماثُل من خلال التعليم ووسائل الإعلام. والآلات تتطلب التعاون والعمل الجماعي لعدد كبير من الناس منتظمين في آليات شبيهة «بالتعاونيات» ومحكومة بإدارة مركزية. وأخيراً، فإنها توفّر إمكانات السيطرة الكاملة للمجتمع، « أعنى السلُطات » على الفرد بواسطة بواسطة المراقبة المباشرة أو غير المباشرة على ما يفعله أو يقوله أو يفكر فيه.

الريف والمدينة

يتحدث الشعراء عن جحيم المدن الكبرى، بينما الماركسيون يتحدثون عن «الحياة الغبية للريف»(٢٩). إن الشعور بكراهية المدينة هو رد فعل إنساني خالص، فكل إنسان هو شاعر بمعنى من المعاني، هو كذلك اليوم كما كان من قبل. ويأتي الاحتجاج ضد المدينة وضد الحياة الحضرية من الدين والثقافة والفن. فقد كانت روما عند المسيحيين الأوائل هي مملكة الشيطان التي يُفترض أن تتبعها نهاية العالم، يوم القيامة.

وتقلّ نسبة التدين تبعاً لحجم المدينة، ويرجع هذا إلى تركيز العوامل الحضارية التي تساعد على عزلة الإنسان. فكلما اتسعت المدينة قلّت الطبيعة والسماء فوقها؛ فهناك دخان أكثر وجدران من الاسمنت المسلح وتكنولوجيا وجريمة. بالنسبة لحجم المدينة هناك علاقة عكسية بالتديّن وعلاقة طردية

= Keneth Clark: Civilization (London: BBC, 1962) p. 321.

(٢٨) «هنري ليفيفر» Henri Lefèbvre: Every Day Life in the Modern World. trans. Sacha Rebinovitch (New York: Harper and Row, 1970).

(٢٩) أنظر: «كارل ماركس» Karl Marx & Friedrich Engels: The Communist Manifesto: Principles of Communism..:

بالجريمة(٣٠). فهاتان الظاهرتان لهما أسباب مشتركة من حيث أنهما مرتبطان بما يُسمَّى «الجمال الواقع في مجال الخبرة».

إنسان القرية لديه فرصة أكبر لكي يشاهد السماء المنقوشة بالنجوم، والحقول الخضراء، والزهور والأنهار والنباتات والحيوانات، فهو يعيش متصلاً بالطبيعة وعناصرها المتنوعة. ويُقدم له «الفلكلور» الفني وطقوس الزواج والأغاني الشعبية والرقصات، نوعاً من الثقافة والخبرة الجمالية ليست معروفة لإنسان المدينة. أما الإنسان الحضري، فإنه يعيش في إطار مدينة كبيرة تغصُّ بالمعارف السلبية لوسائل الإعلام الجماهيرية، ومُحاطة بأشياء قبيحة من المنتجات الصناعية. أليس الحس بإيقاع الطبيعة الذي تملكه الشعوب البدائية قد ذَبُل تقريباً عند الإنسان الحديث؟ ومن أكبر الأخطاء في عصرنا شيوع فكرة أن ساكن الحضر لديه فرصٌ أكثر لممارسة الخبرة الفنية والجمالية. كأنما الحفلات الموسيقية والمتاحف والمعارض التي يتردد عليها نسبة ضئيلة جداً من سكان المدينة يمكن أن تكون تعويضاً عن النشوة الجمالية التي قد تكون لاشعورية ولكنها قوية عند إنسان القرية، الذي يستمتع بمشاهدة المنظر الرائع لشروق الشمس، وليقظة الحياة بعد انتهاء فصل الشتاء! إن غالبية سكان المدينة يمارسون أقوى مشاعَر الإثارة في مباراة حامية لكرة القدم أو ملاكمة. وإجمالاً نقول: إن إنسان القرية حيّ وأصيل، أما العامل الصناعي الحضري فهو آلي وميت.

هنا فقط في إطار المناخ الروحي المختلف والخبرات المختلفة، وليس في إطار الظروف المعيشية المختلفة والمستويات التعليمية المختلفة، ينبغي لنا أن نسأل عن تفسير لتديُّن إنسان القرية وقلّة التديّن عند العامل الصناعي الحضري(٣١). إن الدين ينتمي إلى الحياة والفن والثقافة، أما الإلحاد فينتمي إلى التنظيم والعلم والحضارة.

---

(٣٠) طبقاً لبعض الإحصائيات ١٢ إلى ١٣٪ من سكان «باريس» فقط يذهبون إلى الصلاة الكاثوليكية، وفي «ليون» ترتفع النسبة إلى ٢٠,٩٪ وفي «سانت إتْيين» تبلغ النسبة ٢٨,٥٪. أما البيانات الإحصائية عن الجريمة فلا بد أنها تعطي تدرُّجاً عكسياً.

(٣١) لا واحدة من الظاهرتين يمكن تفسيرها بعدم توافر الأمن الاقتصادي، فحياة العامل الصناعي =

الطبقة العاملة

لأن الطبقة العاملة هي نتاج المدينة، فقد عانت على الأغلب من التأثير السلبي لما يُسمى «بالحضارة الخالصة» أي (الحضارة التي تخلو من الثقافة). إن المصنع يُنهك الشخصية ويستبد بها. كتب أحد علماء الاجتماع، فقال: «إن العمال ـ وقد خضعوا لنظام صارم ـ ينقلون عاداتهم التي اكتسبوها في عملية الإنتاج إلى تنظيماتهم العُمَّالية، فهم يتخلّون عن قوتهم إلى البيروقراطية التي نشأت تلقائياً، والتي تلعب دوراً محافظاً سواء في الدول الرأسمالية أو الدول الاشتراكية»(٣٢).

لقد كشف «هربرت ماركيوز» أن العمال في دولة رأسمالية متقدمة حيث يكون تأثير التكنولوجيا والمصانع على أشده، لم يعودوا قوة ثورية، وأن الطبقة العمالية تُعتبر نموذجاً لجماعة مُستغلَّة يُتلاعب بها ويمكن مُداهنتها والإشادة بها. ولكن يندر استشارتها أو اتباع رأيها. إن أكبر طبقتين عُماليتين في العالم ـ تلك التي في الولايات المتحدة والتي في الاتحاد السوفياتي ـ ليس لهما تأثير حقيقي على البناء السياسي في دولتيهما ولا على القرارات التي تُتخذ فيهما(٣٣).

إحدى النتائج الثانوية لهذا الوضع ـ إلى جانب الانسلاخ من الدين والفنون ـ هو فقر الفكر، أو العقم النظري في حركة الطبقة العاملة. وهي حقيقة اعترف بها الكتاب الشيوعيون أمثال: «جورز» Gorz و«جارودي» Garaudy و«باسو» Basso و«مالّلي» Malle. في مقابلة مع مراسل صحيفة إيطالية هي «إلكونتمبرانو» Ilcontemporano، قال الكاتب الماركسي الشهير «لوكاكس» Lukacs: «بعد

= ليست أكثر أمناً من حياة إنسان القرية في هذه الناحية، فإن السوق غير مستقر ومتقلب كالسماء. وقد أوضح «ماركس» أنه بالنسبة للعامل الصناعي، السوق قوة سحرية ليس في متناوله السيطرة عليها.

(٣٢) إلى جانب ذلك توجد دلائل قوية تشير إلى أن هناك تأثيراً كبيراً للمافيا وبعض الجماعات السرية في إدارة بعض الاتحادات العمالية في أمريكا.

(٣٣) أنظر: «هربرت ماركيوز»:

Herbert Marcuse: A Critique of Pure Tolerence. (Boston: Beacon Press, 1969).

«ماركس» لم يساهم أحدٌ عدا «لينين» أي مساهمة نظرية في مشكلات التطور الرأسمالي». فلما انعطف نظره إلى الفترة «الستالينية» في الاتحاد السوفياتي قرر «لوكاكْس»: أن «كل فكر حر قد أخمد»، واعتُبرت بعض الآراء الشخصية قوانين نظرية. ونشأ جيل بأكمله في هذا المناخ الذي تدهور فيه الحس النظري.

وفي الحقيقة، لا نجد بعد ماركس ـ الذي لم ينشأ في طبقة عمالية وإنما في الطبقة المتوسطة ـ أي فكرة أصيلة ذات قيمة صدرت عن الطبقة العمالية، باستثناء فكرة الإدارة الذاتية في يوغسلافيا، التي ـ رغم بعض الصعوبات ـ تمثل طريقاً متميزاً. على أيٍ حال، هذه الفكرة تعني تحرُّراً من النَّمْذجة والعقائدية المغلقة التي وضعت فيها الماركسية الأغلال على نمو فكر الطبقة العاملة.

الإضرابات التي تهز الاقتصاد الرأسمالي عادةً ما تحمل طابعاً اقتصادياً، وتنتهي في صيغة تسوية تُرفع بمقتضاها أجور العمال. وحيث أن عملية النمو الاقتصادي لم يتبعها تدهور في أوضاع الطبقة العاملة كما تنبأ ماركس، فقد وُجدت طريقة لترتيب سلام طبقي بدلاً من الحرب الطبقية بين المجموعات ذات المصالح المتناقضة فى المجتمع[٣٤].

إن الشكل التقليدي للطبقة العاملة، أي طبقة «البروليتاريا» المقهورة في المصانع، والتي ـ طبقاً لماركس ـ ستوجد «حتى تُلغي نفسها» كان شكلاً مؤقتاً. فالآلات تأخذ دور العمل اليدوي وأصبح النشاط الإنساني مُنْصَبّاً أكثر فأكثر على السيطرة على النظم الآلية الكبرى وإدارتها[٣٥].

---

(٣٤) إن الأهمية الاقتصادية للإضرابات العمالية ليست بالضخامة التي تبدو عليها للوهلة الأولى. فطبقاً للإحصاءات الصادرة من معهد سويدي سنة ١٩٧٨ عن أكبر الدول الرأسمالية: الولايات المتحدة وبريطانيا وإيطاليا وكندا ـ أخذت الإضرابات ـ خلال خمس سنوات (من ١٩٧٣ ـ ١٩٧٨) ـ أقل من ١٪ من وقت العمل، وفي السويد أخذت ٦ دقائق من وقت العامل اليومي، بينما في سويسرا بلغت حداً لا يذكر.

(٣٥) طبقاً لبعض التحليلات: العامل الذي يعمل على آلة كاملة الميْكنة يقوم بعمل ناشط لمدة ساعة واحدة في الأسبوع، بينما يمضي الساعات التسع والثلاثين الباقية مجرد ملاحظ للآلة =

إن تطور العلم والتكنولوجيا و«تطور وسائل الإنتاج» لم يؤدّ إلى قوة الطبقة العاملة ولكن إلى تدهورها. لم يمنح هذا التطور قوة للعمل، بل على العكس نقل النقطة الحاسمة في الإنتاج وكذا الأهمية الاجتماعية إلى الذكاء التكنولوجي. وهكذا، تلاشت آخر المثالية والرومانسية الثورية. وظهرت على المسرح «التكنوقراطية» أو القوة العقلانية التي لا قلب لها، وهي النتاج النموذجي للحضارة الراسخة.

الدين والثورة

لم تكن الثورة حدثاً قاصراً على ميادين الحضارة أو الاقتصاد أو المجتمع أو السياسة. فكل ثورة حقيقية هي عضو في أسرة كبيرة تتميز بسمات: الإيمان، والشعور المتضخم بالقوة والأهمية، والعدوان، والرغبة العارمة، والتضحية والموت ـ هذه المشاعر التي هي أبعد ما تكون عن نطاق المصلحة والوجود. وأي شخص كان له دور في ثورة أو تابع تطورها عن قرب، يستطيع أن يؤكد وجود هذه الملامح الأخلاقية. إنه يرى الثورة كقصيدة ملحمية وليس فقط مجرد تدمير آلي أو تغيير بسيط في الآلة الحاكمة. وهذا يفسر لنا عجز العمال في الدول الرأسمالية عن الثورة، كما يفسر من ناحية أخرى حماس الشعراء والفنانين والمتدينين للثورة، التي قد تبدو ملحدة عند إعلانها. ولكن، إذا نظرنا إلى الثورة من الداخل ـ لا باعتبارها عملية ولكن كجزء من الحياة ـ فستبدو لنا كالدراما التي تؤثر في الناس تأثير الأديان. أما إذا نُظر إليها من الخارج، أي من وجهة النظر السياسية الواقعية، فيمكن أن تتخذ صفة مختلفة وهدفاً مختلفاً(٣٦).

= فقط. والتطور في هذه الناحية سريع جداً، خصوصاً بعد أن سادت تكنولوجيا الحاسبات الآلية في فروع كثيرة من فروع الصناعة. ويبدو أن «ماركس» وهو جدلي عظيم لم يستطع أن يتبين هذا التطور، أو أنه لم يستطع استخلاص النتيجة المناسبة منه، فقد نظر إلى الطبقة العاملة نظرة جامدة لا نظرة جدلية.

(٣٦) في القصيدة الشهيرة «اثنتا عشرة منهم» للشاعر الروسي «ألكسندر بلوك» Alexander Bloke (أعضاء الحرس الأحمر يقودهم المسيح) كانت هذه هي رؤية القصيدة لحدث الثورة =

إن المجتمع الذي تسيطر عليه مشاعر التضامن والتضحية والمصير المشترك يعتبر في «حالة دينية». هذا هو مناخ «الحرارة العاطفية العالية» الذي يظهر في حالات الطوارىء، وفي الاحتفالات الدينية عندما يجمع الناس شعور الأخوّة والصداقة.

إن المجتمع العاجز عن التديّن، هو أيضاً عاجز عن الثورة. والبلاد التي تمارس الحماس الثوري تمارس نوعاً من المشاعر الدينية الحية. إن مشاعر الأخوة والتضامن والعدالة هي مشاعر دينية في صميم جوهرها، وإنما موجّهة في ثورة لتحقيق العدالة والجنة على هذه الأرض.

إن كلاً من الدين والثورة يولدان في مخاضٍ من الألم والمعاناة ويحتضران في الرخاء والرفاهية والترف. حياة الدين والثورة تدوم بدوام النضال والجهاد، حتى إذا تحققا، يبدأ الموت يتسرب إليهما. ففي مرحلة التحقُّق في الواقع العملي يُنتجان مؤسسات وأبنية، وهذه المؤسسات نفسها هي التي تقضي عليهما في نهاية الأمر. فالمؤسسات الرسمية لا هي ثورية ولا هي دينية.

فإذا وجدنا خصوماً للثورة في نطاق الدين، فهم خصوم ينتمون إلى الدين الرسمي فقط، أي إلى الكنيسة ونظامها الإداري الهرمي، أو الدين المؤسّسيّ الزائف. وعلى العكس، فإن الثورة الزائفة أي الثورة التي تحولت إلى مؤسسة وإلى بيروقراطية، تجد دائماً حليفها في الدين الذي تحوّل هو أيضاً إلى مؤسسة وإلى بيروقراطية. فما أن تبدأ الثورة تكذب وتخدع نفسها حتى تمضي مع الدين المزيف يداً بيد.

التقدم ضد الإنسان(*)

وفقاً لكلام العالم الأمريكي «جوليوس روبرت أوبنهيمر» مخترع القنبلة

= الشيوعية، وقد كُتبت بعد قيام الثورة مباشرة فهاجمها النُّقّاد الرسميون باعتبارها قصيدة دينية. ونحن لا نعرف ما إذا كان وزير الثقافة آنذاك «لوناتشارسكي» Lunatcharski قد نجح في حماية «بلوك» بزعمه أن القصيدة مجرد «رؤية قائمة على الفاجعة»:
(London: Chatto and Windus, 1920).

(*) عندما يتحدث المؤلف عن «التقدم» فهو يعني التقدم المادي التقني فحسب. (المترجم)

الهيدروجينية: أن الجنس البشري قد حقق تقدماً تكنولوجياً ومادياً في الأربعين سنة الماضية أكثر مما حققه خلال الأربعين قرناً الماضية، فقد زادت المسافات المتاحة للإنسان من ($١٠^{١٠}$ إلى $١٠^{٤٠}$) والحرارة من ($١٠^{٥}$ إلى $١٠^{١١}$) والضغط من ($١٠^{١٠}$ إلى $١٠^{١٦}$)... وفي مدى ٣٠ سنة قادمة سوف تُستبدل تماماً المحركات ذات المكبس القديم بسفن تديرها الطاقة النووية. إن اليوم الذي ستقوم به الكابلات الكهربائية تحت أرض الشوارع بتسيير السيارات الكهربائية على الطريق قريب[٣٧]. أما «جان روستاند»، فقد بحث تطوّر الإمكانات السحرية للبيولوجيا، حيث ذهب إلى أنه باستخدام مواد وراثية من أناس بالغي الذكاء، سيتمكن الجنس البشري من تشكيل نفسه. وإذا نجح العلماء في إنتاج DNA بطريقة صناعية (وهو القاعدة الكيميائية للوراثة في الكروموزومات)، فإن احتمالات جديدة لا حدود لها ستظهر في حياتنا. بحيث يستطيع كل إنسان أن يحصل على طفل مُصمّم وفق رغبته. إن العقل البشري الذي يحتوي على عشرة بلايين خلية يمكن أنْ يُضاف إليه بضعة بلايين أخرى مأخوذة من مكان آخر، أو مُنتجة بعملية خاصة. وسيصبح استزراع أجزاء الجسم وأعضائه المأخوذة من الجثث حدثاً معتاداً. كما أن اكتشاف أسباب تدهور المخ سوف يجعل ممكناً ذلك الحلم القديم الذي راود الإنسان، حلم إطالة العمر، وذلك عن طريق تقليل ساعات النوم التي يحتاجها الإنسان[٣٨]. وستسمح الإمكانات الاقتصادية للعالم المتقدم بتقصير أسبوع العمل إلى ٣٠ ساعة، وبتخفيض العمل السنوي إلى تسعة أشهر فقط. وتكشف الإحصاءات، أنه في سنة ١٩٦٥ م، كان هناك ٦٩ مليون سيارة و٦٠ مليون جهاز تليفزيون و٧,٧ مليون قارب ويخت في الولايات المتحدة. وفي السنة نفسها أنفق الأمريكيون ٣٠ بليون دولار على الإجازات فقط. وأن خُمس السلع الشخصية في الولايات المتحدة هي مواد للرفاهية. وقد حسب أحدهم فوجد أن الدول الغنية التي

---

(٣٧) أنظر: أوبنهيمر Julius Robert Oppenheimer: On Science and Culture, Ercounter (October: 1962).

(٣٨) أنظر: «روستاند» Jean Rostand: Humanly Possible: A Biologist's Notes on the future of mankind, trans. Lowell Bair. (New York: Saturday Review Press, 1973).

تشكل ثلث العالم تنفق ١٥ بليون دولار في السنة على مواد الزينة وحدها. وفي هذه البلاد يُعتبر مستوى المعيشة أعلى خمس مرات مما كان عليه سنة ١٨٠٠، وفي الستين سنة القادمة سيكون أعلى خمس مرات مما هو عليه الآن، وهكذا....

بعد هذه الرؤية المتفائلة، من حقنا أن نتساءل: هل يعني هذا أن الحياة ستكون أغنى خمس مرات وأنها ستكون أسعد وأكثر إنسانية؟ إن الإجابة على هذا السؤال كما سيبدو لنا قاطعة. ففي الولايات المتحدة الأمريكية، وهي أغنى دولة في العالم، وقعت خمسة ملايين جريمة سنة ١٩٦٥ م. وكانت الزيادة في الجرائم الخطيرة أسرع ١٤ مرة من الزيادة السكانية (١٨٧٪ مقابل ١٣٪). وفي الدولة نفسها تحدث جريمة كل ١٢ ثانية، وجريمة قتل بالذات كل ساعة، وجريمة اغتصاب للعِرض كل ٢٥ دقيقة، وجريمة سرقة كل خمس دقائق، وسرقة سيارة كل دقيقة(٣٩). إن ازدياد نسبة الجرائم أمر يبعث على الفزع. ففي الولايات المتحدة سنة ١٩٥١، كان هناك ٣,١ جريمة قتل بين كل ١٠٠ ألف من السكان، ارتفع الرقم سنة ١٩٦٠ إلى خمس جرائم قتل، وبلغت في سنة ١٩٦٧ تسع جرائم قتل. وفي ألمانيا الغربية خلال ١٦ سنة زادت جرائم القتل ثلاث مرات. وفي سنة ١٩٦٦ سُجل مليونا جريمة ارتفعت في سنة ١٩٧٠ إلى ٢,٤١٣,٠٠٠ جريمة. وزادت نسبة جرائم القتل العمد ٣٥٪ خلال السنوات العشر الأخيرة. وزادت نسبة جرائم العنف في اسكتلندا في المدة نفسها ١٠٠٪. وفي كندا زادت جرائم القتل بنسبة ٩٨,٢٪ خلال الفترة من (١٩٦٢ - ١٩٧٠)، وقد يكون لإبطال عقوبة الإعدام سنة ١٩٦٢ أثرٌ ما ولكن ليس الأثر الوحيد على تفاقم الظاهرة.

وفي أحد استطلاعات الرأي العام التي أُجريت في فرنسا حديثاً، وضع الفرنسيون الخوف من العنف على رأس قائمة مشكلاتهم اليومية. إن زيادة عدد الجرائم، خصوصاً جرائم الشباب، أصبحت مثيرة للقلق. فخلال عشر سنوات

---

(٣٩) هذه البيانات مستقاة من: Yearly Report of FBI, 1965.

(١٩٦٦ - ١٩٧٦) زادت جرائم السرقة في فرنسا بنسبة ١٧٧٪، وفي بلجيكا تضاعف عدد الجرائم بين سنتي ١٩٦٩ و١٩٧٨.

في المؤتمر الدولي السابع لعلماء الجريمة الذي انعقد في بلجراد (سبتمبر ١٩٧٣)، كان هناك إجماع في الرأي على أن الوقت الراهن يتميز بالتزايد المذهل للجريمة في جميع البلاد. ولتفسير هذا الوضع اعترف علماء الجريمة الأمريكيون بأن كوكبنا هذا هو محيطٌ من الجانحين، فالناس جميعاً، بشكل أو بآخر، لديهم نزعة الجنوح، وأنه لا يوجد أمامنا مخرج من هذه الكارثة.

وفي تقرير للأمم المتحدة تحت عنوان «الوضع في العالم ١٩٧٠»، كشف عن بعض الحقائق في دولة صناعية لم يصرح باسمها: أن عدد المراهقين الذين تعامل معهم البوليس قد ازداد من مليون واحد سنة ١٩٥٥ إلى ٢,٤ مليون سنة ١٩٦٥[٤٠]. وذكر سكرتير عام الأمم المتحدة في تقرير له «أن بعض الدول الأكثر تقدماً لديها مشكلات خطيرة في مجال الجنوح... فبرغم التقدم المادي، لم تكن الحياة الإنسانية أقل أمناً مما هي عليه اليوم. وأن مختلف الأشكال من الجرائم (الشخصية والعامة) من سرقة وغشٍّ وفساد وجرائم منظمة، تمثّل ثمناً غالياً يدفعه الإنسان من أجل وسائل الحياة العصرية والتقدم»[٤١].

وقد أظهر البحث الذي قام به عالم الطب النفسي السوفييتي «هُداكوف» توسُّعاً مخيفاً في تعاطي الخمور، خصوصاً في الدول المتحضرة بعد الحرب العالمية الثانية. فقد تضاعف بيع الخمور على مستوى العالم من سنة ١٩٤٠ - ١٩٦٠، وفي سنة ١٩٦٥ ارتفع ٢,٨ مرة، وفي سنة ١٩٧٠ أصبح ٤,٣ مرات. وفي سنة ١٩٧٣ ٥,٥ مرات. وهناك ظاهرة معينة وهي التوسع في تعاطي الخُمور بين النساء والشباب[٤٢]. فوفقاً للبيانات الصادرة عن مؤسسة خيرية بريطانية

---

(٤٠) الأمم المتحدة.

U.N. Report: The Situation of the World in 1970. (Paris: Unesco, n d).

(٤١) سكرتير عام الأمم المتحدة.

U.N. General Secretary Report: Prevention and Fighting Against Criminality (Paris: Unesco, 1970).

(٤٢) أنظر: «هُداكوف» Lydia Hodakov: Sociology of Work

تسمى «المساعدات المتيسّرة» «Offered Help» في ١٩٧٣، كان هناك ٤٠٠ ألف مدمن في إنجلترا، أكثر من ٨٠ ألفاً منهم من النساء. وأن نصفهنّ ينتهي بهنّ الأمر عادة في مستشفى الأمراض العقلية، وأن واحدة بين كل ثلاث منهنّ لديها نزعة انتحارية.

وتحتل فرنسا رأس القائمة من حيث استهلاك الخمور في أوروبا، تتبعها إيطاليا وروسيا. وطبقاً لإحصائيات الوفاة بسبب الخمور تحتل برلين الغربية المكان الأول، حيث بلغ ضحايا الكحول ٤٤,٣ ضحية من كل ١٠٠ ألف من السكان، وتتبعها فرنسا ٣٥ وفاة من كل ١٠٠ ألف، ثم النمسا ٣٠ وفاة[٤٣].

أصبحت مشكلة إدمان الكحول في هذا القرن مشكلة الأغنياء والدول المتقدمة، فإذا كان الكحول والمخدرات ملاذاً، فأي ملاذٍ هذا الذي يتطلع إليه الأغنياء، ومن أي شيء يهربون؟ لقد اعتدنا في الماضي أن نربط بين الإدمان والفقر والتخلف وكان عندنا أمل في مستقبل أفضل. ولكن المأزق الآن مأزق شامل، حيث يقول خبير سويدي: «لأسباب لا نستطيع تحديدها أو تسميتها، نجد أن أعراض هذه الأمراض الاجتماعية يُعبر عنها في السويد بصراحة أكثر من أي دولة أخرى». ولمواجهة حقيقة أن هناك واحداً من كل عشرة من السويديين هو مدمن للكحول فرضت الحكومة السويدية زيادات متتابعة وكبيرة من الضرائب على الكحول، ولكن بدون أثر يُذكر.

أما الغزو البشع للأدب الإباحي، فمن المؤكد أن له الجذور نفسها. فأكثر الدول تحضُّراً ـ مثل فرنسا والدانمارك وألمانيا الغربية ـ تحتل المركز الأول في هذا المجال. ففي سنة ١٩٧٥، كانت الأفلام الإباحية تمثل أكثر من نصف مجموع الأفلام السينمائية المُعدَّة للعرض. وفي باريس وحدها يوجد ٢٥٠ داراً للسينما مخصّصة لعرض هذا اللون من الأفلام. وقد حاول الطبيب النفسي الشهير البروفسور «بلانشارد» أن يفسر هذه الظاهرة، فقال:

«إن الأيديولوجية المسيطرة تكبت الشخصية أكثر وأكثر، فهي توجه الإنسان

---

(٤٣) إحصائيات سنة ١٩٦١.

لحياة آلية وفقاً لخطة (نوم ـ قطار ـ عمل)(*)، وهي خطة تمنح مستوى معيناً من المعيشة ولكنها تحرم الإنسان من الخبرة والإثارة الحقيقيتين. كل شيء مجهز سابقاً، حتى الإجازات منظمة ومخطّطة، وصاحب الشأن لا يستطيع أن يغيّر أي شيء. ولهذا السبب، يحتاج معظم الناس غريزياً إلى الهرب من أنفسهم ليجرّبوا أنواعاً من الإثارة الرخيصة. وتجد هذه الحاجة إشباعها في الأفلام الإباحية»(٤٤).

حتى ألعاب الحظّ تتلاءم مع «تقدّمهم» في الحضارة. وهذه أيضاً تتبع الاتجاه العام للرذائل مع إدمان الكحول والإباحية، والأدب الرخيص الهابط، وغير ذلك من بلاء. فأكبر مدن القمار في العالم توجد في أعلى مناطق الحضارة: «دوفيل» Dauville، و«مونت كارلو» و«ماكاو» Macao و«لاس فيجاس». في مدينة أتلانتيك تتسع صالة الكازينو الضخم لما يقرب من ستة آلاف لاعب. وتشير البيانات الرسمية إلى أن الفرنسيين قد أنفقوا عام ١٩٦٥ (١١٥) بليون فرنك في القمار، وأما الأمريكيون فقد أنفقوا (١٥) بليون دولار. وأن واحداً من كل ثلاثة من المجريِّين يشتري «تذكرة اليانصيب» «اللوتاري». ووفقاً لاستبيانات عما يخصصه الأفراد في نفقاتهم وُجد أن أكبر اهتمام بألعاب القمار سائد في السويد متبوعة بإسرائيل والدانمارك. فالمنحنى يتلاقى مع منحنى مستوى الحضارة مع بعض الانحرافات.

وطبقاً لبيانات البوليس الرسمية في نيويورك، كان هناك أكثر من ٢٣ ألف شاب في نيويورك مسجّلين كمدمنين للهروين، وغيره من المخدرات الثقيلة سنة ١٩٦٣. وقُدِّر أن العدد الحقيقي للمدمنين يزيد عن مائة ألف. وفي «كلية هنتر بنيويورك» أكثر من نصف الطلاب يتعاطى الحشيش، وهو الخطوة الأولى نحو المخدرات الثقيلة.

وبعد الحرب العالمية الثانية، وفي هذه الدولة نفسها ذات الثراء والرخاء، ظهر

---

(٤٤) «بلانشارد» Keneth H. Blanchard and Paul Hersey: Management of Organizational Behavior: Utilizing Human Resources, 2nd ed (Englewood Cliff, NJ.: Prentice Hall, 1972).

(*) يعني أن الإنسان يقضي حياته مربوطاً بسلسلة محكمة من روتين يومي منظّم بمواعيد دقيقة بين (النوم ـ ووسائل المواصلات ـ والعمل الآلي). (المترجم)

جيل بائس من الشباب يملك كل شيء ولكن يعوزه كل شيء. أولئك هم «الوجوديون» أو ما يسمون «بالجيل المهزوم» الذين يبشّرون بفلسفة «العبث». وهو جيل من القُصَّر المعرّضين للانحراف، و«الهِبيزْ» الذين يتجاهلون الواقع ويسخرون من النظام والقواعد، وتنتشر أساليب سلوكهم وأفكارهم كما ينتشر الطاعون في المدن الكبرى في أنحاء العالم.

إنه لمن الخطأ الشديد أن نظن ـ تأسيساً على القول أو المظهر ـ أن ثورة الشباب سنة ١٩٦٨ في أمريكا وفرنسا كانت ثورة سياسية أو أيديولوجية (عَقَدِيّة)، فالذي حدث كان ـ على الحقيقة ـ ثورة أخلاقية. في أمريكا كانت الثورة على ما يسمى «بأمريكا المؤسسة» أو على «المؤسسة»، وفي فرنسا كانت الثورة ضد مؤسساتها. وفي كلتا الحالتين كانت الثورة ضد بعض مظاهر الحضارة. أو كما يقول «إجو لا ملفا» Ugo La Malfa: «كانت مقاومة للأخلاق الاستهلاكية في المجتمع الصناعي». ولأن بعض الناس لم يستطيعوا أن يفسروا هذه الثورة في قلب الرخاء، فقد وصفوها بأنها «ثورة بلا سبب» كما قال «مالرو» Malraux: «ثورة الشباب اللاعقلانية». وهي بالتأكيد كذلك، إذا نحن جردناها من الجانب الأخلاقي.

أما «آرثر ميللر»، وهو حَكَمٌ عدْل في أمريكا الحديثة، فقد قال: «إن مشكلة انحراف الشباب لا تنتمي فقط للمدن الكبرى بل إلى الريف أيضاً، إنها ليست مشكلة الرأسمالية فحسب، بل الاشتراكية أيضاً، ولا يقتصر ظهورها مع الفقر فقط بل مع الثراء كذلك، إنها ليست مشكلة عُنْصرية، أو مشكلة هجرة ولا حتى مشكلة الأمريكيين الخلّص. إنني أعتقد أن المشكلة ـ في وضعها الراهن ـ هي نتاج التكنولوجيا التي دمّرت الإنسان كقيمة في ذاته... وباختصار، لقد اندثرت الروح وتلاشت. ربما طردتها من الأرض وحشيّة الحربين العالميتين... أو أن العملية التقنية قد امتصتها من الآخرين فلم تُبق لأحد منهم، إلا أن يكون زبوناً لبائع أو عاملاً تحت إِمْرَةِ مدير، أو فقيراً أمام غنيّ وبالعكس ـ باختصار كعناصر يُتلاعب بها بشكل أو بآخر، وليس كشخصيات ذات قيمة»(٤٥).

(٤٥) ليس من شك أن التليفزيون له دوره المحزن في هذا المجال. وقد أذيعت نتيجة لدراسةٍ =

كيف يمكن تفسير حقيقة أن عدد حالات الانتحار والأمراض النفسية تتناسب طرديّاً مع مستوى الحضارة؟ وقد اشتكى عالم نفساني أمريكي فقال: «هذه حقيقة هامة من وجهة نظر نفسية، هل هؤلاء الناس أصبحوا أقل رضىً مع وجود التحسُّنات التي طرأت على حياتهم المعيشية؟». هذه الظاهرة التي تظهر بصفة خاصة في بعض الدول المتقدمة الخالية من المشكلات الاجتماعية التقليدية، تهز في أعماقنا الثقة في التقدم.

في الولايات المتحدة، هناك أربعة أشخاص من كل ألف شخص نزلاء في مستشفيات الأمراض العقلية. وفي ولاية نيويورك ٥,٥ شخص من كل ألف. وأكثر من نصف الأسرَّة في جميع المستشفيات الأمريكية يشغلها المصابون بالأمراض العقلية. وفي هوليوود توجد أكبر نسبة من عدد الأطباء النفسانيين في العالم.

وطبقاً لتقرير رسمي لسلطات الصحة العامة الأمريكية سنة ١٩٧٨ م، أن واحداً من كل خمسة أمريكيين عانى من انهيار عصبي أو كان على حافّته. هذه النتيجة مؤسسة على مادة لا تقبل الشك، فقد اختيرت عينة من الأشخاص تمثل ١١١ مليوناً من السكان في سن النضج بين سن (١٩ - ٧٩) سنة[٤٦].

أما «السويد»، فتنفرد بالرقم القياسي في الانتحار ومدمني المخدرات

= استمرت ست سنوات كان موضوعها العنف في برامج التليفزيون، وعما إذا كانت تسبب العنف في الحياة (وقد انتهت الدراسة سنة ١٩٧٧). قال «وليام بلْسون» William Balson: إن الإجابة للأسف بالإيجاب. وقد أجرى أحدهم حسبة فوجد أن الطفل الأمريكي العادي يشاهد ١٨ ألف جريمة قتل على التليفزيون قبل أن ينتهي من مدرسته الثانوية.

(٤٦) أنشأ الرئيس الأمريكي لجنة للصحة العقلية استمر عملها عشر سنوات ونشرت تقريرها في ١٩٧٧، وقد اكتشفت اللجنة أن مشكلات من هذا النوع أسوأ مما كان مُتوقّعاً وأن ١/٣ من السكان على الأقل كانوا يعانون من آثار اضطرابات عاطفية خطيرة. وفي دراسة للمعهد القومي للصحة العقلية في السنة نفسها تبين أن أكثر من ٣,١ مليون أمريكي عولجوا من اضطرابات عقلية مختلفة. ووجد أن ثمانية ملايين طفل أمريكي من ٥٤ مليوناً كانوا يحتاجون لمساعدات بسبب صعوبات نفسية، وأن عشرة ملايين على الأقل من الناس عانوْا من مشكلات بسبب استهلاك الخمور، بينما زاد عدد مدمني الهرويين أكثر من نصف مليون.

والأمراض العقلية، بينما هي تقف على رأس العالم من حيث الدخل القومي، وفي الإلمام بالقراءة والكتابة، والعمالة وفي الضمان الاجتماعي. ومع ذلك، فقد سجلت في السويد سنة ١٩٦٧م، ١٧٠٢ حادثة انتحار بزيادة ٣٠٪ عن سنة ١٩٦٠. وقد نشرت منظمة الصحة العالمية في «جنيف» سنة ١٩٦٨ قائمة مقارنة لِنِسَبِ حوادث الانتحار في عدد من الدول، وكانت الدول الثماني التي تصدّرت القائمة هي: ألمانيا الغربية، والنمسا، وكندا، والدانمارك، وفنلندا والمجر. في هذه الدول، كان الانتحار هو السبب الثالث من أسباب الوفاة للرجال بين سن ١٥ - ٤٥ سنة، ثم تأتي بعد ذلك أمراض القلب والسرطان.

وفي تقرير للمنظمة سنة ١٩٧٠، يبرز بوضوح «أن هذه الظاهرة تتوازى مع التصنيع والتحضر وانهيار الأسرة». وإذا نظرنا إلى الظاهرة نفسها في نطاق دولة أو مجتمع معين، فسنجد أنها تزداد وضوحاً مع درجة التقدم والتعليم. ففي يوغسلافيا، على سبيل المثال، نجد في «سلوفينيا» وهي أكثر تقدماً من الجمهوريات الأخرى أن حالات الانتحار تمثل ٢٥,٨ في كل ١٠٠ ألف من السكان، بينما في «كسوفو» وهي متخلفة حيث تبلغ الأمية فيها ٤٤٪، هناك ٣,٤ حالات انتحار من كل ١٠٠ ألف من السكان، ذلك وفق إحصائيات سنة ١٩٦٧. وطبقاً لبحث أجراه د. «أنتوني ريل» «Dr. Antony Rail» مدير الخدمة الصحية: «أن عدد حالات الانتحار في الجامعات البريطانية أكبر ست مرات عن المتوسط القومي، بينما عدد حالات الانتحار في جامعة «كمبريدج» بالذات أكبر عشر مرات من عدد حالات الانتحار بين الشباب البريطاني من السن نفسه، وهي حالة تستدعي القلق، حيث أن جميع الطلبة البريطانيين إما أنهم جاءوا من أسر ثريّة، أو على مِنحٍ دراسية من الحكومة.

وقد يكون من الخطأ الفادح ومن الظلم أن نستنتج أن الظواهر المرضية التي ذكرناها خاصة بالحضارة الغربية. وإنما الحقيقة، أنها تعبير عن الحضارة بحكم طبيعتها. فكل ما قيل عن الولايات المتحدة وألمانيا وبريطانيا والسويد ينطبق أيضاً على اليابان، حتى وإن كانت تقع على الجانب الآخر من الكرة الأرضية، وفي محيط شديد الاختلاف. قد تخضع هذه الظواهر لبعض التعديلات ولكنها

تظل محتفظة بالاتجاه نفسه. ففي حالة اليابان، تأتي بعض الفروق من ناحية تماسك الثقافة اليابانية التقليدية ومن ناحية قوة الأسرة اليابانية(٤٧).

ومن الصعب الكشف عن جميع الأسباب التي تكمن وراء هذه الظواهر التي نحن بصددها. ومهما يكن الأمر، فقد أمكن تتبع ظاهرة تعاطي المخدرات بين الشباب في بيت الأبوين. فقد كتب د. «فلاديتا يروتيتش» Dr. Vladita Jerotic، وهو طبيب نفساني يوغسلافي: «إن الأسرة المضطربة أو المحطمة التي تُسبب تطورات عُصابية في الشخص الصغير السن تجعله يبحث عن ميكانيزمات دفاعية خاطئة ضد الاضطراب العُصابي... إن اختفاء المجتمع الأبوي واختفاء الأسرة الذي شاع الآن في العالم، يخلق جواً من التعاسة الداخلية مُعبِّراً عن نفسه بإحدى طريقتين في العالم الخارجي: الغضب والتمرد، أو حالة من اللامبالاة والسلبية والاستسلام ينتج عنها اللجوء لتعاطي المخدرات»(٤٨).

ويقترح «روجر رويل» Roger Rowel مدير مركز «هارفارد للبحوث الاجتماعية» إنشاء لجنة خاصة في مجلس الشيوخ الأمريكي للبحث في تأثير التكنولوجيا على الإنسان والمجتمع، وقال: «نظراً للظروف الحديثة، سوف يزداد عمر الإنسان ثلاثة عقود، ولكن حياته ستكون حياة مُمِلّة وعقيمة».

خِلافاً لوجهة النظر المادية، ليست الحضارة والرفاهية متلائمتين تماماً مع الطبيعة الإنسانية، فالفجوة الاجتماعية مثلاً كبيرة ـ بصفة عامة في الدول الكاثوليكية ـ أكثر منها في الدول البروتستانتية(٤٩). ومع ذلك تشير حالات الانتحار والأمراض العقلية إلى وضع معكوس. إن «المادة» التي خُلق منها الإنسان ليست هي ـ أو ليست هي فقط ـ ما كان يعتقد به العلم والبيولوجيا التطورية في القرن التاسع عشر. فالإنسان لا يُصلحه أن يحيا بحواسّه فقط كما

---

(٤٧) أنظر:

Anasaki: The Crisis of Japan Culture, (n.p., n.d.).

(٤٨) NIN. 9/11, 1969.

(٤٩) تفاوت الدخول في فرنسا مثلاً أعلى مرتين منه في إنجلترا وألمانيا الغربية، وأعلى ثلاث مرات منه في هولندا.

تزعم المادية: «الرغبة التي لا تتحقق تسبب الألم، والرغبة المحقّقة تولّد شعوراً بالإشباع»[٥٠]. إن الرفاهية وما يصاحبها من حالات عقلية تقلّل، بل تقضي على الارتباط بأي نظام قِيَميّ[٥١]. والحضارة أبعد من أن تمنح لحياتنا معنىً، إنما هي في الحقيقة جزء من الهُراء في وجودنا.

إن فُقدان الاختيار ـ وهو سمة قاتلة من سمات الحضارة ـ يظهر على أكثر ما يكون الظهور في العجز عن وقف إنتاج وسائل الدمار الشامل، كما يظهر في الإيقاع الرهيب لتخريب الحياة الطبيعية الذي يقوم به الإنسان المتحضر في بيئته. إنه الصراع بين الآلي والعضويّ، بين المبادىء الصناعية والمبادىء الطبيعية في حياة الإنسان.

بسبب الغزو الحضاري يتقهقر خط الغابات في البرازيل من عشرة إلى خمسة عشر كيلومتراً كل عام، وتغزو الصحراء المساحات الخضراء. وفي الولايات المتحدة، أصبح ٨٠٪ من المياه العذبة ملوثاً بالعادم الصناعي. وتَسَبّب الدخان المتصاعد من مصانع النحاس الكبرى في «تنسي» في تحويل التربة الغنية إلى صحراء تغطي الآن عشرين ألف هكتار من الأرض. وفي لندن (سنة ١٩٥٥)، تسبب تركيز أحماض النحاس والسناج في الضباب في مقتل أكثر من أربعة آلاف شخص في يوم واحد. ويتصاعد من عادم المِداخن والسيارات في الولايات المتحدة ٢٣٠ مليون طن من المواد الضارة بالصحة في الهواء المحيط كل عام. وفي فرنسا (١٩٦٠)، نفثت محطات الطاقة ١١٤ ألف طن من غاز الكبريت، وأكثر من ٨٢ مليون طن من نفايات الأفران. وقد ارتفعت هذه الأرقام سنة ١٩٦٨ برغم الكثير من الإجراءات الوقائية التي اتُّخذت. ويسقط في منطقة «الرّور» Ruhr بألمانيا ما يقربُ من ١٢٧ ألف طن من الغبار الصناعي سنويّاً. وفي المدن الإنكليزية والسويسرية التي تغطيها سحب السّناج، نجد أن الوفيات التي يسببها سرطان الرئة قد زادت ٤٠ مرة خلال الخمسين سنة الأخيرة، وفي

(٥٠) «شوبنهور».
(٥١) ﴿... ولكنْ متَّعْتَهُمْ وآباءَهُم حتى نَسُوا الذِّكْر وكانوا قوماً بُوراً﴾. سورة الفرقان، الآية (١٨).

الولايات المتحدة الأمريكية، زادت ٥٠ مرة خلال العشرين سنة الأخيرة. وقد أثبت بحثٌ أُجري في «طوكيو» عند تقاطع «ياناجا» الكبير أن عشرةً من كل ٤٩ فُحصوا من المارّة يحملون في دمائهم من الرصاص من ٢ إلى ٧ مرات أكثر من المعدّل المعتاد، والسبب راجع إلى الغازات التي تنفثها قوافل السيارات. لقد قتلت السيارات منذ اختراعها عدداً من البشر أكبر من عدد القتلى في جميع الحروب التي جرت في هذا القرن(٥٢).

ومن المستحيل أن نجد في هذه الحضارة ـ إذا اعتمدنا عليها وحدها ـ أي قوى يمكن أن تحارب كل هذا البلاء. بل أكثر من هذا، إذا اقتصرنا على سُلّم القيم السائد في هذه الحضارة، فلن نجد قيمة أخلاقية واحدة يمكن أن تسدّ الطريق أمام غزو الإباحية، أو تقاوم انتشار الخمور. ويوجد شعور عام بالقنوط والاستسلام لدى علماء الجريمة الأمريكيين وهم يواجهون الارتفاع المستمر في جرائم الانحراف. وفي الحقيقة، هو قنوط العلم في مواجهة الأمراض الاجتماعية التي تتميز بجانب لاأخلاقي واضح.

إن الحضارة لا يمكن دحضُها من داخلها، وإنما فقط من خارجها، أعني بواسطة الثقافة. فمن وجهة نظر الحضارة، لا يستطيع العلم أن يتراجع نحو الدين أو تتراجع الحضارة إلى الأسرة التقليدية، فالدائرة مُحكمة الإغلاق.

تشاؤم المسرح

من الأمور ذات الدلالة أن تأتي الفلسفة التشاؤمية من المناطق الغنية المتقدمة، وإليك هذه السلسلة من المتشائمين (إبْسِنْ، هيدجر، مِيلَرْ، بِنْتر، بِكِتْ، أونيل، بيرجمانْ، كَامو، أنطونيني . . . وغيرهم). لقد ظل العلماء الذين يتبعون الظواهر الخارجية للأشياء على تفاؤلهم، أما المفكرون، وعلى الأخص الفنّانون، فهم المتشائمون.

---

(٥٢) هذه البيانات مستقاة من دراسة أحد خبراء الطرق الأمريكيين هو «نوربرت تيمان» Norbert Timan في مؤتمر دولي عن «أمْن الطرق» عقد في باريس سنة ١٩٧٦، تحت عنوان «كيف الهروب من هذا التقدم».

فإذا نظرنا إلى الأمر نظرة سطحية، سيبدو لنا التشاؤم وكأنه ملازم للمناطق التي تم فيها القضاء على الأمية، والتي تتمتع بالتأمين الاجتماعي، وبدخلٍ فردي عالٍ يبدأ من ألفي دولار فأكثر. كانت الفلسفة الاسكندنافية فلسفة تشاؤمية إلى أبعد حد منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. فهي ترى أن المصير الإنساني مصير مأساوي ولا أمل فيه، وأن النتيجة النهائية لجميع مساعي الإنسان والوجود الإنساني بأسْره ظلام وضياع. إنه لَمِنَ السخرية بمكان أن تظهر مثل هذه الفلسفة في بلاد قد تخلصت من الأمية منذ مطلع هذا القرن، بينما كان الجزء الجنوبي في أوروبا يرتع في بُلهْنِيةِ الجهالة. في سنة ١٩٠٦، كانت نسبة الأمية في بلغاريا وسيبيريا ٧٠٪، وفي إيطاليا ٤٨٪، وفي إسبانيا ٦٣٪، وفي المجر ٣٤٪، وفي النمسا ٣٩٪. والأمر يدعو للتساؤل عما إذا كان هناك علاقة بين التأمين الاجتماعي في السويد - وهو فيما نعلم أفضل نظام في العالم - وبين الشعور باليأس من الحياة. وهل مشاعر الاستمتاع المادي تولّد شعوراً بالتعاسة الروحية؟

تتميز الحضارة بإيقاع بطيء في الحياة الداخلية على عكس النشاط الخارجي للحياة الاقتصادية والسياسية. ومسرحيّات العبث هي الصورة الحقيقية للحياة الإنسانية في أكثر المجتمعات تقدُّماً اليوم.

الرفاهية هي الصورة البرّانية، والعبثيّة هي الصورة الجُوانيّة للحياة. فإذا عبّرنا عن هذا الموقف تعبيراً جدلياً نقول: كلما زادت الرفاهية والرخاء كلما تعاظم الشعور باليأس والخواء... وعلى عكس ذلك، يمكن أن تكون المجتمعات البدائية فقيرة تتفاقم فيها الاختلافات الاجتماعية الحادّة، ولكن كل ما نعلمه عنها يشير إلى أن حياتها مليئة بمشاعر قوية خصبة. إن الفلكلور - وهو أدب المجتمع البدائي - يُرينا بطريقته الخاصة كيف يمكن أن يبلغ النشاط الحي أقصاه عند الإنسان البدائي. إن مشاعر الاستياء والقنوط مجهولة تماماً في المجتمع الفقير(٥٣).

---

(٥٣) كشفت أبحاث «جالوبو» Galupo - تحت عنوان «The Whole Mankind's Opinion» =

إنه المسرح الذي تنكشف فيه للعالم المتحضر «مأساته الإنسانية». قد يكون هناك بقايا أمل في المسرحيات الكوميدية والمسرحيات الموسيقية التقليدية القديمة. أما المسرحيات الجادة، فإنها تنفث التشاؤم. وما زال المسرح يمزّق هالة الكمال الزائف التي وضعها العلم على وجه الحضارة. يتدخل العلم عُنوةً ببياناته عن وفرة السلع، ومعدلات الإنتاج بالجملة، وعن الطاقة، والقوة البشرية، بينما تشير الفنون إلى الضياع الإنساني، والبؤس الفكري والأخلاقي، والعنف، والوحشية والخواء النفسي في قلب الثراء والقوة للعالم المتقدم، يكتشف المسرح إنساناً يائساً عنيفاً تطوّقه النفس اللوّامة.

إن الشعراء هم جهاز الحس في الجنس البشري، ومن مخاوفهم وشكوكهم نستطيع أن نحكم بأن العالم لا يسير في طريق الإنسانية، وإنما في طريق اغتراب الإنسان واستلاب إنسانيته.

عام ١٩٧١، انتحر «ياسوناري كواباتا» Yasunari Kawabata الياباني الحائز على جائزة نوبل في الأدب سنة ١٩٦٨ وقبل ذلك بسنتين، في سنة ١٩٦٩، انتحر روائي ياباني كبير آخر هو «يُوكيوميشيما»، أَنْهى حياته بالطريقة نفسها. ومنذ عام ١٨٩٥، أقدم على الانتحار ثلاثة عشر روائياً وكاتباً يابانياً بمن فيهم مؤلف «راشومونو» وهو «ريونوسوكو أكوتاجاوا» في سنة ١٩٧٢. لقد تزامنت المأساة المتواصلة للثقافة اليابانية خلال سبعين عاماً مع اختراق الحضارة الغربية والأفكار المادية للثقافة اليابانية التقليدية. ومهما كانت الحضارة، فإنها ستبقى في نظر الشعراء وكتّاب المسرح التراجيدي دائماً وجهاً لاإنسانياً وخطراً على الإنسانية. كتب «كواباتا» قبل موته بعام يقول: «لقد انفصل الناس بعضهم عن بعض بجدران من المسلح سدت الطريق أمام التواصل والحب، وهُزمت الطبيعة باسم التقدم». وفي روايته «بلاد الجليد» التي نُشرت سنة ١٩٣٧ م، كتب «كواباتا»: «كانت وِحدة الإنسان واغترابه في العالم الحديث في بؤرة فكره».

= والتي أجراها ١٩٧٥ م ـ عن أنه بعكس الروح التشكّكية التي تطبع حياة الناس في البلاد المتقدمة، نجد الشعوب الفقيرة في أمريكا الجنوبية وأفريقيا ينظرون إلى المستقبل بطريقة تفاؤلية.

إن جميع ممثلي الثقافة يعتقدون بفشل الإنسان وهزيمته في الحضارة. ويتساءل «أندريه مالرو» عن مصير آمال وتطلعات القرن التاسع عشر ويُجيب: «إنها أوروبا التي دُمِّرت ولطختها الدماء، هي التي دمرت الإنسان ولطخته بالدماء وهي تظن أنها تخلقه»(٥٤).

وصورة مماثلة يراها «بول فاليري» بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة، حيث يقول: «هناك أمل يحتضر في ثقافة أوروبية وفي معرفةٍ لم تستطع أن تنقذ أي شيء. وهناك علم مطعون حتى الموت في طموحاته الأخلاقية وقد دنسته تطبيقاته الوحشية، والمثالية التي شقت طريقها يوماً بين الصِّعاب نراها اليوم تتعذب أشد العذاب وهي تسأل عن أحلامها المحلِّقة، وواقعية هجرتها الأوهام مضروبة مطحونة محمّلة بالجرائم والخطايا. الشهوة وإنكار الذات، كلاهما أصبح موضع سخرية. وارتبكت الأديان: الصليب ضد الصليب والهلال ضد الهلال. هناك بعض الشكّاكين، ولكن حتى هؤلاء اختلط عليهم الأمر بسبب هذه الأهوال والأحداث بالغة السرعة، بالغة العنف التي تسبب عاهات مستديمة لا يمّحي أثرها، أحداث تلعب بأفكارنا كما تلعب الهرّة بالفأر: يفقد الشكاكون شكهم ثم يجدونه ثم يفقدونه مرة أخرى، لقد نسوا كيف يستخدمون مهاراتهم العقلية»(٥٥).

العدميّة وفلسفة العبث، هما ثمرة أكثر بلاد العَالم ثراءً وتقدّماً. هذه الفلسفة تتحدث عن عالم بلا منطق، عن فرد منقسم على نفسه سيكولوجيًّا ومحطم، عن عالم أصمّ أبْكم صامت. إنها ليست على الإطلاق فلسفة سامّة، كما يزعم بعض الناس، هي في الحقيقة فلسفة عميقة قادرة على التنوير. إنها تعبير عن مقاومة الإنسان، عن عدم رضاه عن العالم الذي ينمو بعكس الصورة التي أرادها لنفسه، إنها تمرُّد على الحضارة ذات البعد الواحد(٥٦). وللسبب نفسه وجد بعض الناس

---

(٥٤) من خطاب لأندريه مالرو سنة ١٩٦٤، في مؤتمر لمنظمة «اليونسكو».

(٥٥) أنظر: «بول فاليري». Paul Valéry: Collected Works, ed. Jackson Mathews, vol. 10 History of Politics (New York: Pantheon Books, 1956).

(٥٦) أنظر: «كامو» وأيضاً «ماركيوز»: Camus: L'Home Revolte... Marcues: One - Diamensional Man (Boston: Beacen Press, 1946).

في العدميّة الجديدة نوعاً من الدين. وسنرى أن هذه الفكرة ليست بدون أساس.

إن العدميّة والدين يمثلان إنكاراً للمادية ويقْبلان هذا العالم بالفكرة نفسها. القلق البدائي، والنظر فيما وراء القبور، والبحث المُجهدْ عن طريق خارج هذا العالم الذي أصبح الإنسان فيه غريباً(٥٧). هذه الأفكار مشتركة بينهما. وإنما يكمن الفرق في أن العدميّة لا تجد طريقاً للخلاص، بينما يذهب الدين إلى أنه قد وجد هذا الطريق.

إن إخفاق الحضارة البيِّن في سعيها لحل مشكلة السعادة الإنسانية بواسطة العلم والقوة والثروة ـ إذا فُهم وتم الاعتراف به ـ فسوف يكون له أقوى أثر نفسي على الجنس البشري. بهذا نبدأ في مراجعة بعض من أفكارنا الأساسية التي هي موضع قبول عام حتى الآن. وأول فكرة يجب مراجعتها هي فكرة العلم الخاطئة عن الإنسان. فما دامت الحضارة عاجزة عن حل مشكلة السعادة الإنسانية فلا بد ان تكون فكرة الدين عن أصل الإنسان هي الفكرة الصحيحة وفكرة العلم هي الخاطئة، وليس هناك اختيار ثالث.

العدميّة

لنعُد إلى النقاط المشتركة بين العدميّة والدين، وهي حقيقة تُبرز العدميّة الحديثة كشكل من أشكال الدين في الحضارة.

إن العدميّة ليست إنكاراً للإلوهية ولكنها احتجاج على غيابها، وكما هي عند «بِكِتْ» Beckett احتجاج على غياب الإنسان، أو احتجاج على حقيقة أن الإنسان غير ممكن أو غير متحقق. هذا الموقف ينطوي على فكرة دينية لا فكرة علمية عن الإنسان وعن العالم. فالإنسان كما يتصوره العلم ممكن ومتحقق، ولكننا نجد في التحليل النهائي أن كل ما تحقق هو شيء لاإنساني. إن عبارة «سارتر» الشهيرة التي يصف فيها الإنسان بأنه عاطفة تافهة لا جدوى منها، هي

(٥٧) أنظر: «كامو» Camus: The Stranger: (N.Y.: Alfred Knopf, 1946).

عبارة دينية بمنطقها وبروحها معاً. في المادية لا توجد عاطفة أو تفاهة، فلا يمكن أن يكون في العلم تفاهة لأنه لا توجد فيه عاطفة.

لأن المادية ترفض الغائيّة في العالم (أي أن للعالم غاية عليا)، فإنها تتخلص بذلك من مخاطر العبثية والتفاهة. عالمُ المادية وإنسانها لهما غايات عملية ولهما وظيفة.. لتكن وظيفة حيوانية.. لا يهم. إن عبارة: الإنسان عاطفة لا جدوى منها أو عاطفة تافهة تتضمن فكرة أن الإنسان والعالم، ليس بينهما تناغم أو تطابق. وهذا الموقف المتطرف تجاه العالم كان هو بداية جميع الأديان. إن التفاهة عند «سارتر» والعدميّة عند «كامو» تفترض البحث عن هدفٍ ومعنىً. وهو بحث يختلف عن البحث الديني في أنه ينتهي عندهما بالفشل. ولكنه يُعتبر بحثاً دينياً، من حيث أنه يعني رفض الهدف الدنيوي للحياة الإنسانية، أو رفْض الوظيفة الدنيوية.

البحث عن الله (سبحانه وتعالى) بحث ديني، ولكن ليس كل بحث ينتهي باكتشاف. فالعدميّة خيبة أمل ليس بسبب العالم والنظام، وإنما بسبب غياب الخير من العالم. فكل شيء تافهٌ وعَدَمٌ إذا كان الإنسان يموت إلى الأبد(٥٨). إن الفلسفة العدميّة لا تتحدث مباشرة عن الدين، ولكنها تعبّر بوضوح عن الاعتقاد بأن الإنسان والعالم ليسا مصنوعين بالمعيار نفسه. إنها تعبّر عن القلق، والقلق بجميع درجاته ـ فيما عدا نتيجته ـ هو قلق ديني. عند العدميّة وعند الدين الإنسان غريب في هذا العالم، ففي العدميّة هو غريب ضائع بلا أمل، وأما في الدين فهناك أمل في الخلاص.

إن أفكار «ألبير كامو» يمكن فهمها فقط إذا اعتبرناه مؤمناً مخيّب الرجاء.

«في عالم خَبا فيه الوهم فجأةً وانطفأ الضياء يشعر الإنسان بالاغتراب، إنه الطرد الذي لا فكاك منه ولا مهرب، فلا توجد ذكريات عن وطن مفقود ولا أمل في الوصول إلى أرض موعودة... لو أنني شجرة بين الشجر، فقد يصبح لهذه

(٥٨) ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا تُرجعون﴾. سورة المؤمنون، الآية (١١٥).

الحياة معنى، ولعلها تصبح أفضل... لم تكن هذه المشكلة لتنشأ لأني سأكون حينذاك جزءاً من هذا العالم الذي أقاومه بكل قوة في ضميري. كل شيء جائز طالما أن الله غير موجود وأن الإنسان يموت»[٥٩].

هذه العبارة الأخيرة ليس بينها شيء مشترك مع الإلحاد المصطنع القاطع عند المفكرين العقلانيين. إنما على العكس، هي لعنة صامتة للروح التي أجهدها البحث عن الله دون أن تجده، إنها «إلحاد اليأس».

نجد أن الوجودية في قضية الحرية الأخلاقية تتخذ الموقف نفسه الذي اتخذه الدين. تقول «سيمون دي بوفوار»: «في البدء لم يكن الإنسان شيئاً ويتوقف عليه أن يجعل نفسه خيِّراً أو شرِّيراً اعتماداً على قبوله أو رفضه للحرية. إن الحرية تقرر أهدافها بصفة مطلقة، وليس هناك قوة خارجية - حتى الموت نفسه - قادرة على تحطيم ما قررته الحرية... فما دمنا لم نكسب اللعبة أو نخسرها مقدماً، فمن الضروري أن نناضل وأن نركب الخطر في كل لحظة»[٦٠]. حتى ازدواجية الوجود عند «سارتر»: «الوجود في ذاته» و«الوجود لذاته» «L'étre en soi» et «L'étre pour soi» إنكار واضح للمادية. المصطلحات فقط هي الجديدة، أما الجوهر فقديمٌ ويمكن التعرف عليه[٦١].

إن «الهبيز» هم بشكل ما استمرار للمذهب الوجودي، خصوصاً من ناحية مظهره العملي وتطبيقه. واحتجاج «الهبيز» ضد التقدم بصرف النظر عن اتخاذه

---

(٥٩) أنظر «كامو»: Camus: The Stranger...

(٦٠) أنظر «سيمون دي بوفوار»: Simon de Beauvoir: L'exestentialisme et la Sagesse des nation (Paris: Gallimard, 1970).

(٦١) الشيء نفسه ينطبق على الاعتراف بالضمير «كل ما يحدث في الضمير لا يمكن تفسيره بأي شيء خارجه، ولكن فقط بما هو في داخله» أنظر: سارتر:
Sarter: The Emotion, Oultine of a Theory, trans. Bernard Frechtman (New York: Citadel Press 1971).
وانظر أيضاً لسارتر: مسرحية «هُوي كْلُوز» Sarter: Theatre (Paris: Gallimard, 1947).
هذه المسرحية تقول لنا إن كل شيء موجود على الحقيقة، يوجد فقط كعلاقة بين إنسان وإنسان!

شكلاً حاداً أو عبثياً هو فضيلة كبرى لهذه الحركة، مما يجعلها ظاهرة ثقافية أصيلة في هذا العصر. فإنكار التقدم المادي يمكن أن يستند فحسب على فلسفة دينية، ولو في مقدماتها الأساسية على الأقل.

هذا النقد للحضارة ليس دعوةً لرفضها، فالحضارة لا يمكن رفضها حتى لو رغبنا في ذلك. إنما الشيء الوحيد الضروري والممكن هو أن نحطِّم الأسطورة التي تحيط بها. فإن تحطيم هذه الأسطورة سيؤدي إلى مزيد من أَنْسَنَةِ هذا العالم، وهي مهمة تنتمي بطبيعتها إلى الثقافة.